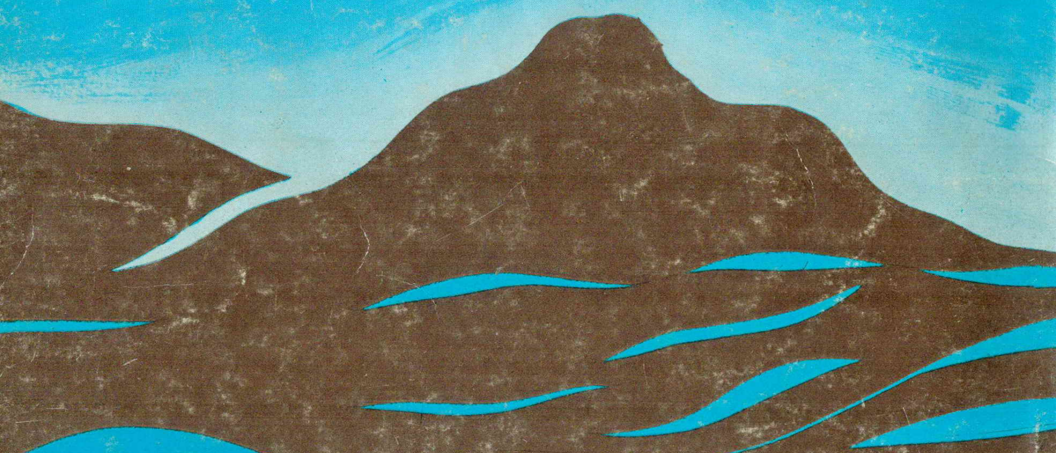
علي محمد كوراني

مكة في ضمير المسلم



دار الفكر

شبكة الفكر
alfeker.net

علي محمد كوراني

مكة في ضمير المسلم

دار الفكر

حقوق الطبع محفوظة للناشر

دار الفكر — بيروت : البنـاية المركزية الطابق الثاني ٢٠٥ ص.ب ٧٠٦١ برقيا فيكسي هاتف ٢٤٤٧٣٩
للطباعة والنشر والتوزيع — القاهرة : ١ شارع سليمان الحلبي (دوبريه سابقا) ص.ب ١٥٠٤ برقيا فيكسيبرتس هاتف ٤٤٠٦٢

الطبعة الأولى

١٣٩٤ هـ

١٩٧٤ م

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام
على أنبياء الله وعباده الصالحين
وبالأخص على سيدنا ونبينا
محمد وآله الأطهار
وصحبه الأبرار

إهداء

إلى ثمار الأفئدة ، الذين يلبّون دعوة الله عز وجل إلى زيارة بيته وديار أحبـــائه عليهم السلام .

وإلى الذين يحبون السياحة في مناطق الطبيعة الجميلة وفي آثار الحضارات .. علّهم يحبون لوناً أعمق من الجمال والمتعة والثراء ، في أرض الله وديار الأنبياء .

□ □

مقدّمة

كانت أمنيةً تملأ صدري أن أزور أرض الله المقدسة وديار أنبيائه وأحبائه عليهم السلام زيارة وافية : أتجول في تلك الربوع والمشاهد ، أتأمل فيها وأشمها وأستنطقها وأتكلم معها ، وأعيش من خلالها مع الله عز وجل ومع أعزائه العاملين لرسالته ، وأغترف من عطائهم ما يكون لي وللعاملين طاقة في خدمة الإسلام .

وأحمد الله أن أنعم عليَّ بأمنيتي فوفقني لعمرة اتسعت للتجوال والتفكر والتروي أكثر مما يتسع موسم الحج ، على عِظم بركته وشمول رحمة الله فيه .

وقد وضعت مع رفيقي وأخي في الله الأستاذ عبد المحسن جمال منهاجاً لزيارتنا ، وكان من هذا المنهاج أن أكتب هذه المقالات ، وقد يسر الله عز وجل فأنجزت بعضها هناك ، ووضعت الخطوط الواسعة لبعضها الآخر .

وفي المقالات المتصلة بالتاريخ والسيرة لم أتقيّد بحرفية ما ورد فيها ، بل ربما تجاوزت بعض ما ورد لعـدم قناعتي بصحته ، أو استكملت المشهد ، أو رسمته كاملاً من خيوط تجمعت في ذهني من عدة نصوص، أو لقناعتي بأنه مشهد معقول وإن لم أره في نص .

لذلك أرجو أن تقرأ هـذه المقالات على أنها مشاهد منسجمة مع القرآن وما صح من التاريخ والسيرة وما هو معقول وممكن بميزان المنطق .

ويطول الحديث إذا أردت أن أسجل مبرراتي لما استبعدته وما أثبته . على أني أقـدم ذلك إلى القارىء الذي يتردد في شرعية أو موضوعية تقديم مشاهد السيرة والتاريخ بهذا الأسلوب .

* *

وقد فضلت لهـذه الأحاديث أن تكون مسترسلة تبرز فيها أنا المتكلم على سجيتها ما دامت أفكاراً ومشاعر أفادها الكاتب من تفاعل شخصي في أرض الله وديار الأحبة .

وأعيذ نفسي وقارئي أن نحسب في الإعتراف من الإسلام امتيازاً ، بل هـو مسؤولية يمتحننا الله بتحويله إلى سلوك مستقيم ، وكذلك كل الثروات التي يخالها الناس امتيازات .

إن البصيرة الفكرية والتفاعل الشعوري مهما كانا بليغين ورائعين فلا قيمة لهما عند الله ما لم نؤصّلها في شخصيتنا ونجسدهما عملاً لرسالتنا وأمتنا . إنا نصلي ونقرأ القرآن ، ونتفكر ونبـكي ونخشع ، ونحج ونصوم ونعتمر ، فنأخذ بذلك

الثروة من الله ، ويبقى علينا مسؤولية الإحتفاظ بهذه الثروة وتجسيدها في عمل صالح .. وهما أصعب بكثير من تناول الثروة .

باستطاعة الصوفي الذي يحسب الكمال بمجرد التفاعل الفكري والشعوري في العبادة أن يعطيني على هذه الأحاديث رتبة في طريقته .

وباستطاعة الإنسان العادي الذي يقيّم الناس بما يراه من أفكارهم ومشاعرهم أن يسخى عليّ لهذه الأحاديث بالدرجة .

ولكن ليس باستطاعة المسلم الذي يقيّم الإنسان بسلوكه في خدمة الرسالة إلا أن يقول : إن لدى الكاتب مادة فكرية وشعورية وأرجو له أن يعيشها كما أمره الله .

إن أنا الكاتب في هذه الأحاديث إنما هي أنا الآخذ من عطاء الله ، وما أجزل عطاءه عز وجل في جوانب وجودنا .

نسأله أن يعيننا لنبذل عطاءه في خدمة رسالته وأمته .

تسبيح

أكملنا مناسك العمرة وشربنا من ماء زمزم ثم اتخذنا مكاناً في المسجد الحرام، فسألت صديقي :

- أمتعب أنت ؟

- لست متعباً ، ولكني موزع الذهن بين الأفكار العديدة .

- نعم ، فهذا زحام المواضيع وغمـــرة الأفكار والمشاعر لمن دخل مكة ومسجدها . وما علينا إلا أن نبدأ بأكبرها وأقواها .

لنبدأ يومينا مع الله عز وجــــل ، فما الوجود يا صاحبي إلا ظلال وجوده القوي ، وما الإحساس به عز وجـل إلا نفوذ إلى الوجود من منفذ قوي ..

أنفذ إلى الله من خـــلال ما ترى أو انفذ اليه سبحانه من خلالك ، فأنت منه على صلة . وأي صلة .

إتخذ لك مكاناً في هذا الفناء ، أو امتزج بنهر الطائفين ، أو طأطيء الهام مع الركع السجود .. وتكلم معه بألفاظ أو بفؤاد ، أو استمع اليه يكلمك بالقرآن ، أو بأي شيء .

*　　　*

سبحانك يا إلهي : إن أخطر ما نصاب به في إيماننا بك تصورنا الغافل لوجودك وأفعالك .

أتذكر قصة عبدك الراعي الذي مر عليه رسولك موسى بن عمران عليه السلام وسمعه يقول في مناجاته :

« أين أنت يا إلهي الحبيب ، ليتني ألقاك فأكون لك خادماً :

أصلح نعليك

وأمشط رأسك

وأغسل قميصك

وأسقيك الحليب

وأقبل يدك اللطيفة ، وأمسح قدمك الرقيق

وأنظف مخدعك حين يجيء وقت المنام .

أين أنت يا إلهي الحبيب ، يا من فداؤك كل أغنامي ، ويا من لذكرك حنيني وهيامي » .

ثم أعود بهذه الظاهرة الينا فأشعر بأننا يا سيدي إخوة عبدك الراعي ، كلنا ننزع إلى تصورك إنساناً مثلنا ! والذي يتجاوز ذاته في تصوره إياك يعود راعياً في تصوره لعملك فيتصوره محكوماً خاضعاً لقوانين عمله وظروفه !

وإذا كانت ظاهرة طبيعية أن نكون في تصورنا إياك كالنملة التي تتصور أن لربها قرنين كقرنيها .. فإن غير الطبيعي أن يتسرب هذا التصور الغافل إلى تعاملنا معك وبحوثنا عنك ! كأنك لم تعطنا من رقابة العقل ما يكفي .

كم آسى لهؤلاء الباحثين الذين يضعون لوجودك هندسة أرسطية ، ولأفعالك خريطة أرسطية ، ويضعون لك على أساسها لائحة حقوق وواجبات ، من غير علم ولا هدى !!

كأنها حاجة ملحة أن نشد صورتك إلى صورنا أبداً ، وأفعالك إلى أفعالنا، وأن لا نتخطى وعي الرعاة . فما أحوجنا يا سيدي إلى تسبيحك .

* *

سبحانك يا سيدي : طالما عجبت من أمرك ، فقد حبست هذا الوجود في إطارين من مكان وزمان ، وصنعت جهاز إدراكنا ليعمل داخل المكان والزمان ، ثم فتحت لنا باباً للعلم بربوبيتك فعلمنا أن هذا الكون من صنعتك وإدارتك ، وأن الزمان والمكان بالنسبة اليك نسيجان محدثان ، وعبدان خاضعان .

فيا لك من قدير جعلتنا نعلم بوجودك ولا نعلم كنه وجودك ، نعلم أنك أنت، ولا نعلم كيف أنت .

ها أنا يا سيدي أبعث ذهني إلى ما وراء الفضاء فيرتد إليّ ليريني فضاء ، وأبعثه إلى ما وراء الزمان فيعود إلي بالزمان ، تماماً كما أنظر إلى المرآة فيرتد بصري ليريني صورتي .. ! فكيف أرجو لبصري أن ينفذ إلى ما وراء المرآة ، أو أرجو لعقلي أن ينفذ وراء الزمان والمكان ، أنّى لهذا الحبيس في حيّز وحركة أن يعرف ذاتاً فوق الحيّز والحركة ؟!

كلا ، لا أطمع يا سيدي أن أعرف كنه ذاتك ما دمت مخلوقاً ملفوفاً بثوبين من زمان ومكان . ولا أسألك كما سألك رسولك موسى بن عمران عليه السلام « رب أرني أنظر اليك » فلقد أفادنا عليه السلام بتجربته أن جهاز إدراك الرسل يصعق

ويتعطل أمام نور تخلقه وتغمر به ربوة من الأرض .. فكيف به أمام وجودك ، وكيف بنا نحن ذوي الأجهزة العادية .

إنما أطمع يا سيدي أن تضاعف من إحساسي بوجودك الذي أحبه ولا أعلم كنهه ، فبذلك نتفاوت نحن البشر وترتفع قيمنا : بمدى الإحساس بوجودك الرفيع ، وبمدى الشعور بنزاهته عن الخضوع لضعف الزمان والمكان اللذين يخضع لهما وجودنا ، وبمدى تنزيه أفعالك عن التأثر بهذين الظرفين اللذين تتأثر بهما أفعالنا ، ثم بمدى ما ينفعنا ذلك في سلوكنا .

خير لي أن أعترف بحدودي يا سيدي وأن لا أكون فراشة تهجم على مصباح متوقد . إن طاقتي يا سيدي أقل من فراشة ، ومصباح وجودك الأبدي أي مصباح هذا الذي أضأت به العدم فصنعت منه موكباً جليلاً حافلاً ، وجوداً وزماناً ومكاناً ، وها أنت تنميه وتموّنه دون انقطاع ..

سبحانك .. ضلت فيك الصفات ، وتفسخت دونك النعوت ، وتلاشت دون أعتابك لطائف الأوهام .

أعوذ بك يا سيدي أن أسأل عنك كالأطفال بأين وكيف ومتى ، فكلها أدوات ووسائل تصلح لمعرفة هذا الوجود المحدود ولا تصلح لمعرفتك يامَن أيّنت الأين وكيّفت الكيف وبدأت شريط الزمان .

وأعوذ بك أن أقيس أعمالك بغير المقياس الذي عرفتنا إياه .

وأعوذ بك أن تستهويني ذهنية المتكلمين الجانحة ، ومشاعر المتصوفين السائبة . وأسألك أن تشعرني بوجودك من خلال الوجود ومن خلال عملك الدائب فيه .

* *

عبدك يا سيدي يريد أن يعرض بين يديك تصوره للطبيعة ولعلاقتك بها ، ويطلب أن تكون ضيافتك في هذا الفناء الهدى والرضا :

هذا الكوكب الذي أجلس على متنه يا سيدي واحد من أفراد مجموعتك الشمسية ، وهذه المجموعة طرف غصن من شجرة كبيرة نسميها المجرة ..

ويقول العلماء إن عدد الأشجار التي غرستها في بستانك بضع مئات من الملايين .. وأن غرسك مستمر ..

ويقولون في عدد كواكب مجرتنا ونجومها رقم عشرة متبوعاً بأحد عشر صفراً . وأمام كواكب المجرات الأخرى .. يصمتون .

والمسافة بين أغصان كل شجرة يقيسونها بسنوات الضوء ، أما المساحات بين الأشجار فبمئات الملايين من هذه السنوات .

وهذا البستان الذي يتخلله الفضاء جعلته فيما يبدو كروياً ، كما أحطته بفضاء كروي ، وجعلت الجميع آخذاً بالإتساع .

أما ما وراء الفضاء فيتصوره ذهني فضاء ، ويقول عقلي إنه العدم تجعله بقدرتك فضاء .

سبحانك ، ما هذا العجز في إدراكنا : نعلم أن ما وراء الفضاء ليس فضاء ولكنا نتصوره.. فضاء . ونعلم أن العدم ليس وجوداً ونتصوره وجوداً . ونعلم أنك لست من نوع هذه الطبيعة ونتصورك من نوعها .. !

ذهننا يا سيدي عنيد ، يجنح دائماً إلى وكره .

إن كونك يا سيدي مذهل ، جغرافيته لا تطاق فيما بالنا بفيزيائه ، وسكانه ، ونفقاته ، وخططه ، وأهدافه .. !

لكن لماذا يا سيدي أتحيّر ، هل أنا مسؤول عن شيء من هذا الكون خارج حدودي . أم أخاف أن يمسّك من مشروعك التعب والعجز وضيق الصدر . مهما يكن هذا الكون كبيراً فأنت أكبر ، ومهما تكن متطلباته كبيرة فقدرتك أكبر . لم يؤدك خلقه ولا يؤودك حفظه . جلت قدرتك .

* *

وهـذا الكون يا سيدي كم فيه من العوالم ، أم أن كل ذرة منه عالم . وكم فيه من المجتمعات وفق مفهومنا عن المجتمع ، كم مضى فيهـا من أجيال ، وكم بقي عليها حتى تبلغ نضجها وتلاقيك .

أخبرتنا منهـا عن مجتمعين اثنين لا زالا يثيران تعجبنا وفضولنا : مجتمع الملائكة المطيعين المطهرين ، المخلوقين كما يقال من مـادة من نور . ومجتمع الجن الذين يشاركوننا في الصلاح والشيطنة المخلوقين من مادة من نار .

وجعلت بين أيدينا على الأرض أنواعاً أخرى من المجتمعات وقلت لنـا : « وما من دابة في الأرض ولا طائر يطـير بجناحيه إلا أمم أمثالكم » ولا زالت هذه الأمم التي بين أيدينا تثير تعجبنا وفضولنا .

ومجتمعات الكون الباقية ، ربمـا كانت ملايين ونحن لا نعرف عنها شيئاً ، بل ومـاذا نعرف عن مجتمعنا . سبحانك لا علم لنـا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم .

* *

هل لي يا سيدي أن أعرف شيئاً عن صلتك بهـذا الموكب ، موكب الطبيعة المترامي الزاخر ، عن صلتك بذرة نابضة فيه ؟

الفلاسفة والمتكلمون قالوا الكثير عن هذه العلاقة .. بعضهم جرى مع فاعليتك حتى مزجك بالطبيعة فجعلك جزءاً منها أو جعلها جزءاً منك ، وسبحانك .

وبعضهم جرى مع سمو ذاتك حتى فصلك عن الطبيعة أو كاد ، ولك الحمد .

والذين جروا مع قانون أن السبب الأعلى في خلق الطبيعة سبب أعلى في استمرارها واتزنوا .. حاروا في تصوير علاقتك بالخلق والإستمرار .

ولا ملجأ يا سيدي من متاهاتهم إلا كتابك ، ولا ريّ من صحرائهم إلا نهر أسمائك الحسنى ..

أسماؤك التسع والتسعون أراها تعبيراً عن علاقاتك بالوجود بل عن علاقات الوجود بك :

فأنت الله الذي يألَهُ إليك الوجود ويتعلق بك حباً وحاجة ..

وأنت الرحمن الذي تعطي بحنان لكل الوجود الحبيب الفقير ..

وأنت الرحيم تعطي من يستوجب بسلوكه عطاءً إضافياً ..

وأنت الرب تربي الوجود وتديره وتيسره إلى تكامله ..

وأنت الملك تملك الوجود تأمر فيه وتنهى فتطاع ..

وأنت القدوس المنزّه عن حاجة الوجود وضعفه وظروفه ..

وأنت السلام الطمأنينة في قوانين وجودك والطمأنينة في قلوب عبادك ..

وأنت المؤمن تؤمن بالحق الذي تفعل وتؤمن الوجود من كل خوف ..

وأنت المهيمن على تكوين هذا الموكب وتموينه ..

وأنت العزيز الذي تخلق وتعطي لا طلباً للسلطان وعـــز الجانب ..

وأنت الجبار تجبر أشياء هذا الوجود على ما يجب أن تجبر عليه، وتخيرها فيا يجب أن تختار فيه ..

وأنت المتكبر عن مشابهة مخلوقاتك في محدوديتهم وظلمهم ، ولكنك المتواضع المتحبب إليهم .

وأنت يا سيدي بصفاتك التسع والتسعين التي علمتنا إياها تعبيراً عن علاقات الوجود بك ، وربما أوجهاً لعلاقة واحدة لا نعلم كنهها .

فسبحانك من كائن لا عن حـــدث ، وموجود لا عن عدم ، مع كل شيء لا بمقارنة ، وغير كل شيء لا بمزايلة . فاعل لا بمعنى الحـــركات والآلة ، ليس لصفتك حدّ محدود ، ولا نعت موجود .

★ ★

ويبدو لي يا سيدي أنك جعلت هذا الوجود شجرة ، وأنك تجمع ثمارهـــا الحلوة والرديئة تغرسها موسماً بعد موسم حتى يحين أن تفصل الغراس الطيبة عن الغراس الخبيثة فتقسم الكون إلى جنائن خالدة وجهنم مزعجـة . ويا له من يوم فصل تعيد فيه الكون كما بدأته ، ثم تنشره كوناً جديداً .

ويبدو لي أنه لم يكن بدٌ من هذا العمل من أجـل أن تتفاعل البذور وتظهر الخصائص . ففي قانون الخلـــق عندك أن كل ما ينفع يجب أن يكون ، وإلا لم يكن .

ونحن أبناء حبيبك آدم ما أشبهنا يا سيدي بشجرة آهـــلة أبداً ، بالشوك والغصون والأوراق .. والثمرات . كل جيل منا يؤتي ثماره قليلاً من الطيبين ،

وكثيراً من الخبيثين ، وكثيراً من الحطام ، وتنغرس الغراس كلها : الأجساد في الأرض ، وما أدري أين تنغرس الأرواح .

شئت لنا هكذا أن يتم إثمارنا مرحلة مرحلة وفوجاً فوجاً ، منذ الأب الأول وحتى الجيل الأخير .. فما أوسع صدرك يا سيدي ، وما أطول أناتك .

★ ★

ويبدو لي يا سيدي أن قوانينك في هـذا الوجود متشابهة ، إن لم تكن واحدة . فقانون التدرج في قطف الأجيال ما أشبهه بقانون التدرج في خلق الخلية الواحدة ، وما أشبهها بقانون التدرج في هداك لنا ، فقد شئت أن يسير مشروع هداك في حركة تاريخية مرحلة مرحلة ، أو نسير نحن اليه خطوة خطوة في معاناة الخطأ والصواب والمعصية والطاعة والإنحراف عنك والإقتراب اليك..

وما أدري فلعلها أوجه لقانون واحد ، قانون الحق والخير الذي اخترته في تكوينك لهذا الوجود ، وفي سيرك به نحو الكمال .

★ ★

والأغرب من ذلك يا سيدي ، والمذهل لذوي الألباب ، هـذه العفوية في قوانينك ، في تكوينك للأشياء وتسييرك إياها ... هذه البساطة في فاعليتك مع الوجود وتموينك إياه من خلال العلاقات التسع والتسعين !

أرجو أن تسمح لي يا سيدي أن أشبّهك برسام يقدم للناس عملاً فنـياً فلا يكادون يصدقونه لأن إنتاجه يشتبه عليهم بإنتاج الطبيعة .

إنك يا سـيدي مؤلف يكتب بضمير المخاطب لا بأنا المتكلم، حتى لينساك القارىء ويتخيل أنه هو المؤلف أو أن المؤلف الكتاب !

إنك يا سيدي لم تضع اسمك على غلاف الكتاب ولا في فصوله كما يفعل المؤلفون .

هذا خلقك يتم بقوانينه في كل يوم وكل ساعة . هـذا عطاؤك ورعايتك وتسييرك لكل حرف في هذا الخلق البليغ الواسع يتم بتلقائية عجيبة .

صحيح يا سيدي أن كل حرف من كتاب الكون ينطق باسمك ، وأنه جميعاً حرف اسمك المقدس ، ولكن التلقائية التي اخترتها في عملك تنسينا إياك .

هؤلاء هم الباحثون في فصول الطبيعة من كتابك تأخذهم قوانينها بالدهشة فينسبون كل شيء فيها إلى هذه القوانين ثم يقفون عندها ولا يتجاوزونها اليك يا صانع القوانين.. ! وتبلغ الدهشة في نفس بعضهم أن يؤلـّه قوانينك وينكرك. يقول : صنعت الطبيعة ، وفعلت الطبيعة ، وقصدت الطبيعة !

وهؤلاء هم الباحثون في فصول التاريخ يندهشون أمام سننه التي جعلتها تصنعه بعفوية . يقول أحدهم : سنة التاريخ ، ومنطق التاريخ .. وينساك .

وهؤلاء ، وهؤلاء الذين يقرؤون شيئاً من كتابك الكبير يحسبون المؤلف سواك . ينسبون البث إلى الراديو والتلفاز والهواء ، وينسون محطة الإرسال والمرسلين ! ينسون عرشك ، ووجودك !

سبحانك يا سيدي ، ما يمنعك أن تفصح عن نفسك في غلاف الكتاب وفصوله ، أن تكتب اسمك بخط عريض في أفق السماء ، وتـُنطق بـه مخلوقاتك بصوت خاشع صباح مساء .

عذراً يا سيدي ، إنه جنوح ظروفنا ، وضغط احتياجنا إلى إعلان أسمائنا . أما أنت فغنيّ حميد . وإعلان اسمك لا يعنيك بقليل ولا كثير ، إنما يتصل بنا نحن . وهـذه العفوية التي نراها ، ضرورة ، لكي نعاني معها معرفتك ،

ونعاني معها خشيتك بالغيب.. ومن أجل هذا كنت لنا الظاهر الباطن، وجعلت الساعة آتية تكاد تخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى .

ولو لم تكن هذه المعاناة ضرورة لنا لما أردتها ، فغير عزيز عليك يا سيدي أن تعطي الوجود والكمال دون أن تكلف من تخلق بشيء من معرفتك .

ولو لم تكن هـــذه العفوية ضرورة لأنطقت الوجود بإسمك ، أو كلمتنا فخشعنا لك ، أو كشفت لنـا جانباً من الغيب ، أو نزّلت علينا من السماء آيةً فظلت أعناقنا لها خاضعين .

★ ★

وأكثر ما يعجبني يا سيدي أن أنظر إلى قوانينك تتلاقى على أمر واحـد ، ويتم لك منه القصد وكأنه لا قصد : قانونك في الخلق وفي الرزق وفي التنمية ، وقانونك في الهداية ، وقانونك في التاريخ والنبات والأسماك ومسارات النجوم والكواكب .. إنهـــا يا سيدي حينما تتجمع وتتم لك منهـــا القصود في آن ، وبعفويتك المعهودة ، تتناغم أيّما تناغم وتسبح بحمدك بفرحة عجيبة تمامـــاً كما يتناغم حفيف الأوراق والأغصان مـــع زقزقة الطيور مع جري النسيم مع تسابق الينابيع مع أشعة الشمس مع صدى الوادي مع نشيد الراعي مع همهمة الحصاد مع صوت الأذان ... أو كما تتناغم الرياح والأمطار والتربة والهواء والحرارة والليالي والأيام آخذة بيد بذرة إلى الحياة ..

وهـــل هذان المظهران إلا بعض قوانينك الملتقية في عفوية مليئة بالجمـال والكمـــال !

وفي هذا الوادي يا سيدي : في هذه الكعبة وهذا المسجد وهذه الربوات ، وفي الأجيال التي عاشت هنا ، وفي روافد النبوّات التي تلاقت هنا، وفي حبيبك سيد الرسل ، وفي قرآنك وفجرك الذي فجّرته من هنا .. في كل هذا البناء ،

وفي العنصر الواحد منه ، كم من قوانين لك تلاقت حتى أتمت هـذا الإخراج ، وحققت هذه القصود .

كذلك أنت يا سيدي بنّـاء قدير تملك ناصية الأشياء من الأزل وإلى الأبد وتهيمن على تحقيق قصودك منها . فسبحانك يا سيدي ما أقدرك وما أعمق وأبلغ تلقائيتك في عملك .

كان من الطبيعي التلقائي كل ما جرى من قوانينك في هذا الوادي وهـذه الربوات :

تكوينها الجغرافي ، وموقعها ، ونشأة المجتمع الأول فيهـا ، وبناء بيت بإسمك ، والإمتداد السكاني منها إلى اليمن وإلى وادي الرافدين ومصر وحوض البحر الأبيض المتوسط ، وإلى بقية العالم .

وكان من الطبيعي أن يُنسى الموطن الأول والبيت الأول .. وأن تـكلف فتى بابل أن يجدد بناءه ويدعو الناس اليه ، ويغرس عنده من ذريته ، وأن يتكون مع الزمن أمة صحراوية بعيدة عن كتب النبوات وفلسفة الحضارات .

وكان من الطبيعي أن تتكرس الإنحرافات في أهل الكتاب وينتهوا إلى تعقيد ميؤوس .

وكان من الطبيعي أن يشتد صراع الأطماع بين دولتي العالم الكبيرتين بيزنطة وفارس ، فيحتاج العالم دماً جديداً : رسالة ورسولاً ومنطلقاً .

كم من قوانينك يا سيدي تلاقت على إخراج الإسلام إلى العـالم وعلى إعادة فجر الهدى من حيث بدأ . وعلى مفاجأة العالم بفكر وفلسفة وتشريـع من بقعة صحراوية لم تعرف فكراً ولا حضارة ، وعلى جعل هذه الكعبة والربوات متجهاً وسطاً وملتقى لقلوب الناس أجمعين، وعلى قصودك الكثيرة الجليلة في هذا الوادي وما حوله ، وفي من عاش فيه وحوله ، وفيما تنزل فيه وحوله ..

وها هي قوانينك تتلاقى من جديد – ويدخـــل فيها عنصر لم يكن يخطر ببال وهو توزيعك الجغرافي للبترول – على تحقيق وعدك بأن تعمم الإسلام على العالم وتظهره على الدين كله .

يا للحرف الواحـد مما تصنع يا سيدي إذ تشترك في تكوينه آلاف الخيوط من آلاف القوانين من آلاف السنين وإلى آلاف السنين .. فيخرج حقاً جميـــلاً كما تريد .

آمنت بك يا سيدي وبأقدارك كلها، ما عرفت منها وما جهلت ، وما فهمت منها وما خفي عليّ .

أنت كما أريد . وفوق ما أريد ، فاجعلني كما تريد . وسبحانك أن تريد إلا الخير لكل مخلوقاتك .

الكعبة

الكعبة : البناء المكعب – القائم على أربعة أركان .

والبيت : الغرفة ، مطلق الغرفة .

والكعبة ، والبيت ، والبيت الحرام ، والبيت العتيق : تسميات من الله لهذا البناء المقدس في مكة ، تسميات فصيحة ميسرة .

أما المعنى الفكري للكعبة فهو أنها : بيت الله في الأرض .

والأرض كلها لله ، وبيوتها بيوته . لكن يبدو أنه عز وجل مع ملكيته المطلقة للوجود ينسب إلى نفسه في كل ملأ من الكون بيتاً . وتقول النصوص إن الكعبة في الأرض تحاذي الضراح أو البيت المعمور في الملأ الأعلى والذي هو كعبة الملائكة . أما كيف تحاذيه ، وفي أي واحدة من المجرات يقع الملأ الأعلى ، وعلى أي خط تقع هذه المحاذاة ؟ فنحن لم نقم بمسح فضائي لواحدة من هذه المجرات ، ولم نعرف خطوط تكوينها الواقعية ، ولا وضعنا لها خطوط مساحة وهمية .

وهل في الكون بيت أكبر هو بيت البيوت وكعبة الكعبات ، وهل هو الضراح ، أو هو العرش الذي يدار منه الكون ..؟ ربما .

ولماذا يتخذ الله بيتاً في كل ملأ من كونه ، وفي أرضنا ؟

نقرأ في القرآن عن الكعبة أنها « البيت المحرم » و « البيت العتيق » فنعرف أول ما نعرف أن هذا البناء مع حرمه – الذي ينوف على مئة كيلومتر مربع – منطقة عريقة وحرة عن الملكية ، ملكية الرأسماليين أو ملكية الشيوعيين ، أو ملكيات الإسلام .. سواء . منطقة لم ولن يملكها أحد إلا الله .

وبهذا ينفتح أمامنا الباب .

ثم نقرأ أنه عز وجل جعل « الكعبة البيت الحرام قياماً للناس » و « مثابة للناس وأمناً » وأن « أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين» ونقرأ مقاطع من القرآن عن قضية هذا البيت وحرمته وأحكامه .

ثم نقرأ في السنة تفصيلاً لذلك وتوضيحاً ، فنجد أن المضمون الفكري للكعبة يتركز في قضايا :

الإتجاه الواحد

والملتقى الآمن

وامتحان الإيمان

ثم نتأمل شكل الكعبة فنجد معنى العمران

ونتأمل حركة الطواف والصلاة عندها فنجد معنى الحياة .

* *

والإتجاه الواحد لأهل الأرض مفهوم عريق في الإسلام لأنه يتفرع من الأساس الذي يقوم عليه الإسلام ، من عقيدة التوحيد . فوحدانية المتجه اليه عز وجل تجعل وحدة الإتجاه ضرورة ، وبيت الله يرمز إلى هذه الوحدة ويؤكد طبيعتها .

وعلى الرغم من تفرق أهل الأرض عناصر وأقاليم وشيعاً وأفراداً في كل اتجاه ، يبقى بيت الله في الأرض مشروع وحدة يجب أن تتحقق ، وشهادة حضور لأصالة الوحدة ، وشهادة إدانة لنشاز التفرق .

ومن طريف موقع الإتجاه الذي اختاره الله للناس أن يكون موطن الأب والأم الطاهرين ، كأنه عز وجل يريد من الناس أن يعيشوا إلى جانب شعورهم بوحدة المتجه اليه عز وجل شعورهم بوحدة الأبوين الطاهرين فيمتزج بذلك حنان الألوهية بحنان الأبوة والأمومة ، وأخوّة الوحدانية بأخوّة النسب .

* *

واللقاء الإنساني الآمن ، هو القضية الثانية البارزة في الكعبة وفي نصوصها الإسلامية . وقد وفر الله عز وجل لهذا اللقاء مضموناً يعجز عنه الفكر ، ومكاناً تعجز عنه الأمم المتحدة في مقرها الحالي ، وحتى لو جعلوا مقرها في منطقة مدوّلة .

يكفي أن ننظر إلى عناصر هذا اللقاء ومقوّماته من ناحية نظرية ، أو ننظر إلى أثره التاريخي والفعلي في ضمير الشعوب وحياتهم ، مع ما في التطبيق من نقص وسلبيات ، كي نخشع لله ونعلم أن ليس بإمكان دولة أو جهة أن تحقق التقاءً مثيلاً أو شبيهاً بالتقاء مكة .

فمنطقة الإلتقاء ، البقعة الحرة العتيقة حتى عن ملكية التدويل ، والباقية على ملكيتها الطبيعية لله ، الملكية التي يتساوى فيها كل عباد الله .

وما تضمه هذه البقعة من بيت الله ومقام أنبيائه .

وموسمية الإلتقاء السنوية .

وتلقائية التوافد ، وتلقائية الوفود .

ووحدة الزيّ بثوبين ميسرين .

وجوّ المناسك وما يعطيه للضمير .

وغير ذلك من العناصر الكثيرة التي تتعاضد على رفع قيمة هذا اللقاء وتأصيله في حياة الشعوب .

* *

والقضية الثالثة في الكعبة ونصوصها : محنة الإيمان والوعي .

لقد تعودنا أن نكبر المنظر ، وأن ننبهر أمام الشكل . ومكة والكعبة هما التحدي العنيد لهذه العادة العنيدة .

تعودنا أن نؤخذ بالخضرة والنضرة والأرض الفسيحة والجبال المكسوّة النديّة .. ومكة خلو من كل ذلك . وها هو الله يدعونا لزيارتها وتقديسها .

وتعوّدنا أن نكبر البناء الباذخ الشامخ ، وأن ننبهر أمام الفن المعماري والزخرفات والألوان .. وها هو الله يدعونا لأن نكبر غرفة عادية من أحجار عادية وبناء عادي في أرض عادية جداً .

وتعودنا أن نعظم الشيء المادي إذا ظهر فيه سر الغيب ، فلو كانت الكعبة تشع بالنور المنظور ، أو كانت تعلو على قوانين المادة ، لهان الأمر ، ولكنها تخضع لما يخضع له غيرها من الغرف : يعتق بنيانها على مر الأعوام فيجدده الناس، ويأتي السيل فيصدع جانباً منها، ويأتي جنود بني أمية ويرمونها بالمنجنيق فيهدمون قسماً منها .. ومع كل ذلك يدعونا الله إلى تعظيمها وإكبارها .

وكساء الكعبة الحريري الأسود المطرز بالآيات الذهبية ، وباب الكعبة المطعم بالذهب ، ومحتوياتها من لوحات رخامية وأعمدة وتحف عريقة .. أعتقد أن الله سمح بها تخفيفاً للمحنة . فقد كانت المحنة أشد لو أن الكعبة مجرد غرفة من أحجار صخرية وباب عادي ، لا حرير ولا ذهب ولا تحف ولا عطور .

أرأيت نفسك كيف لا ترتاح حين ترى جانباً من الكعبة مجرداً من الكسوة بادية أحجاره الدكناء وجصه القديم ..؟ أم رأيتها مجردة في يوم تبديل كسوتها السنوية ، أو افترضتها من الداخل غرفة فارغة من أي شيء ..؟

إنك تريدها مكسوة ، محاطة بأكثر من مظهر مادي وأثر عريق حتى ترتاح نفسك إلى تقديسها !

أرأيت لو كانت الكعبة أصغر من هذا الحجم ، غرفة بمقدار غرفة بيتك ، أو كانت أقل من هذا الإرتفاع ، وقد كانت ، كيف تتألم نفسك لصغر بيت الله !!

أرأيت نفسك في أول مشاهدة للكعبة ، تريد أن يكون التعبير عن المعاني التي أرادها الله من الكعبة في بناء باذخ يأخذ بالألباب ، في أرض تأخذ بالألباب !

إنه من الصعب على النفس البشرية أن تعي الحقيقة إلا من وسيلة مادية ملفتة ! وأن تقدس الحقيقة إلا في ثوب مادي فضفاض ! ويا للمحنة حينما يطلب من البشر أن يستوعبوا الحقيقة ويقدسوها من خلال غرفة كغرف بيوتهم ، وفي وسط أرض دون بقاع أرضهم .

أمام الكعبة وجدت نفسي بحاجة إلى مقطوعة للإمام علي بن أبي طالب

عليه السلام يصف فيهـا بعمق فكره وبلاغة منطقه محنة النفس البشرية حينما يُطلب منها أن تستوعب الحق وتخضع له من خلال الكعبة .

استذكرت بعض فقراتها فـلم أرتو ، فخرجت إلى المكتبات المحيطة بالحرم وعدت بمقطوعة الإمام أتلوها في مسرحها ، ووددت لو أنهـا كتبت للناس لوحة ونصبت في أحد أركان المسجد أو علقت على جدار :

« ألا ترون أن الله سبحانه اختبر الأولين من لدن آدم عليه السلام إلى الآخرين من هـذا العالم ، بأحجار لا تضر ولا تنفـع ولا تبصر ولا تسمع ، فجعلها بيته الحرام الذي جعله للناس قياماً . ثم وضعه بأوعر بقـــاع الأرض حجراً ، وأقل نتائق الأرض مدراً ، وأضيق بطون الأودية قطراً .. بين جبال خشنة ، ورمال دمثة ، وعيون وشلة ، وقرى منقطعة ، لا يزكو بهـــا خف ، ولا حـــافر ولا ظلف ..

ثم أمر آدم وولده أن يثنوا أعطافهم نحـــوه ، فصار مثابةً لمنتجع أسفارهم وغايةً لملتقى رحالهم ، تهوي إليه ثمار الأفئدة ، من مفاوز قفار سحيقة ومهاوي فجاج عميقة وجزائر بحار منقطعة ، حتى يهزوا مناكبهم ذللاً ، يهلـّون لله حوله ، ويرملون على أقدامهم شعثاً غبراً له ، قد نبذوا السرابيل وراء ظهورهم وشوهوا بإعفاء الشعور محاسن خلقهم .. إبتـــلاء عظيماً ، وامتحاناً شديداً ، واختباراً مبيناً ، وتمحيصاً بليغاً ، جعله الله سبباً لرحمته ، ووصلةً إلى جنته .

ولو أراد سبحانه أن يضع بيتـه الحرام ومشاعره العظام بين جنـــات وأنهار ، وسهل وقرار ، جمّ الأشجار ، داني الـــثمار ، ملتف البُنى ، متصل القرى .. بين برةٍ سمراء ، وروضة خضراء ، وأرياف محدقة ، وعراص مغدقة ، ورياض ناضرة ، وطرق عامرة .. لـكان قد صغر قدر الجزاء على حسب ضعف البـــلاء .

ولو كان الآساس المحمول عليها والأحجار المرفوع بها ، بين زمرّدة خضراء ، وياقوتة حمراء ، ونور وضياء .. لخفف ذلك مسارعة الشك في الصدور ، ولوضع مجاهدة إبليس عن القلوب، ولنفى معتلج الريب من الناس . ولكن الله يختبر عباده بأنواع الشدائد ويتعبدهم بأنواع المجـــاهد ، ويبتليهم بضروب المكاره .. إخراجاً للتكبر من قلوبهم ، وإسكاناً للتذلل في نفوسهم ، وليجعل ذلك أبواباً ُفتُحاً إلى فضله ، وأسباباً ُذللاً لعفوه » .

وستبقى الكعبة ومكة امتحاناً لعبـــادة الزخارف والمظاهر ، ودعوة إلى التحرر منها . وستبقى مناسك مكة امتحاناً لعبادة الذات وكبريائها ، ودعوة إلى التحرر منها .

★ ★

وفي فنـــاء المسجد يستحب لك شرعاً أن تجلس وتنظر إلى الكعبة فتتروّى وحيها .. وستوحي لك بالعمران :

فالبيت المربـــع هو العمران الميسر في الأرض ، والبيت عمران مليء بالإنسان والقصد والحركة .

والله يريد العمران : للإنسان ، وللأرض ، وللجنة

فالعقل الفارغ من الاستيعاب خراب مكروه عند الله

والقلب الفارغ من التفاعل مع الحق خراب مكروه عند الله

والشخص الخراب موجود أبطل وجوده وعاد صفراً أو كاد .

والأمة الخراب التي لا تملك رسالة ولا وعياً عقائدياً وتفاعلاً مع الحيـــاة أمة خراب تحتاج إلى أمة بنـّـاءة .

والأرض الخراب المهملة مكروهة عند الله وعلى الإنسان أن يستعمرها ويستثمرها .

وبهذه الكعبة تشعر بأن الله يرمز إلى كل هذا العمران ..

فلماذا لم يجعل الله القبلة للناس شجراً ، أو جبلاً ، أو نهراً ، وجعلها بيتاً ؟ أليس في اختيار البيت إرشاد إلى العمران ، عمران الأرض بالبيوت وبكل مرافق الحياة ، وإرشاد لعمران البيوت والمرافق بالإنسان ، وإرشاد لعمران الإنسان بالحق .

والجنة خلقت لتكون عامرة ، وستكون عامرة ، هكذا يخبرنا الله عز وجل في كتابه. والإتجاه إلى هذه الكعبة والطواف بها واستيعاب هدفها طريق إلى عمران الجنة كما هو طريق إلى عمران الأرض .

* *

وستوحي لك الكعبة بالحياة ، فالعمران حياة . والإنسان ملزم من الله أن يحيا في الأرض ويتحرك.وملزم عند زيارته لبيت الله أن لا يقف جامداً راكداً، بل يحيا ويتحرك ويجسد بطوافه حركة الحياة حول رمز الحياة النابض .

هذا النهر من الطائفين أهو شيء غير نهر الحياة ؟ إقرأه ، تأمله ، أدخل فيه واستشعره ، وافترض أن مفكراً إنساناً أمر الناس به .. فستشعر أنه رمز به إلى الحياة ، فكيف إذا كان الآمر به واهب الحياة عز وجل .

الأشواط السبعة أليست رمزاً للعقود السبعة وللسنوات السبعين التي هي مدة الحياة على الأرض .

والحركة ، أليست رفضاً للقعود والجمود ، وأمراً بالسير في المسيرة .

والشعور بإطاعة الله في مسيرة الطواف ، أليست تربية على الشعور بإطاعته في مسيرة الحياة .

والمسيرة في الطواف : الطفل في سرعته ، والشاب في عنفوانه ، والشيخ على عصاه، والكهل في اعتداده، والرجل والمرأة . وكلٌ بطابعه في المشي والحركة، أليست صورة من مسيرة الحياة بألوانها وتنوعها .

والذين ينتهون من الأشواط السبعة ويخرجون من نهر الطواف إلى الصلاة ، أليسوا هم أولئك الذين ينتهون من أشواط الحياة ويذهبون للوقوف بين يدي ربهم .

وأبواب المسجد مشرعة أبداً ، والنهر عامر أبداً ، ما أشبهه بنهر الحياة المليء . المفتوح للوافدين . الذي لا يحس بالراحلين .

وعند الكعبة يحيا الإنسان ويتحرك بمحتواه الباطني كما يحيا ويتحرك بظاهره أو أشد . فعند الكعبة تتسع حركة العقل والشعور وتتنوع حتى لتجلو عن الإنسان الرواسب وتبعث فيه كوامن طاقات جديدة ، وحتى لينعكس ذلك على الجسد فيحتمل في مكة ما لا يحتمل في غيرها ، ويتنازل في مكة عن حاجات كان يتشبث بها في غيرها .

* *

ها أنا في مكة أعيش لفح هوائها ، وأتنقل بين جبالها الخشنة ، وأنوء برمالها السافية ، وأشرب من عيونها الوشلة ، وأنظر إلى وادي الكعبة المحاصر بالربوات .. وأفكر في بديل يصلح أن يكون :

متجهاً لأهـــل الأرض
وملتقى آمنـاً لوفودهم
وامتحاناً بليغـاً لوعيهم
ورمزاً للعمران ، والحياة ..

فلا أجد غير مكة ، وغير الكعبة .

الذي يبحث عن الإيمان بعقله ، لن يجد غير مكة والكعبة ، وأمـــا الذي لا يريد أن يؤمن فلن يجـــد شيئاً ، لن يجد شيئاً . إنه مريض بعدم الرغبة في التعقـــل .

أسفاً على منظمة الأمم المتحـــدة : لواقعها الكاذب ، ولموقعها الكاذب ، ولمجمعها المطبوع بالفقر والغنى والضعف والطاغوت . وبعـــداً لإنجازها الظالم والزائف في حياة الناس .

وتقديساً لروابيك يا مكة ، لترابك الداكن العاطر ، ولبيتك المقدس الحر ، ولإنجازك الضخم في ضمير الإنسان وحياته ، ولقدرتك الخالدة على الإنجاز .

عانق يا قلب هـذه البقعة ، واستوعب قصود الله فيها ، وتفاعل يا ضمير مع مشاعرها . وتبركي يا أيدي بجدار كعبتها ، وامسحي ببركتها الوجه والقلب .. فها هي الملائكة في مكة صاعدة هابطة ، والله عز وجل لا زال يتخذها عاصمة للأرض ، وهدىً للعالمين .

دِيارُ الأحِبّة

يا أحبايْ : أما قلبي فلا يستطيع أن يستوعب قلباً واحداً منكم ، إنما يستطيع أن يعيش في غمرة العطاء الإلهي الذي أشرقتم به ، وفي غمرة الجهاد الرسالي الذي صنعتم به الأمم والتاريخ ..

و كذلك هو التقدير من الأدنى إلى الأعلى يا سادتي : إنغمار في جلال الأنوار والجهاد وليس استيعاباً في القلب .

روحي فداكم أيها الأحبة ، كنت فيما مضى أتحيّر إلى أي واحد منكم أتحدث وفي أي ناحية من شخصيته أعيش ، حتى هداني الله إلى أنكم وجود واحد وشخصية واحدة .

نعم يا أبي الطاهر ، ويا أمي الحنون ، ويا أجدادي وسادتي : شيثاً وهابيل وإبراهيم واسماعيل ومحمداً ونوحاً وموسى وعيسى ويونس ، ويا ملائكة ربي وأولياءه ممن بنى هذا البيت وجدد قواعده وطاف به وصلى عنده ، وسكن هذه الربوات والبكاك ، وتنزل اليها بالبركة والهدى .. إنكم شخصية واحدة وإن تنوعت ظروفكم وجهودكم . أنتم ذلك الإنسان الرباني المستقيم ، ذلك الضمير الواحد الذي جاش بالوعي والصدق فتجاوب مع ما حوله بما يتناسب من تجاوب .

وبماذا يتوحد الناس إن لم يتوحدوا بالفكر والسلوك. ومتى كان الزيّ الواحد أو الجيل الواحد أو البيئة الواحدة أو العنصر الواحد موجباً لوحـــدة الناس وانسلاك قلوبهم في مجرى واحـــد .. ؟ ومتى كان اختلاف هذه الأشياء موجباً للفرقة والتعدد ..؟

وأشهد يا أحبائي أن وعيكم للكون واحـــد وإن تفاوتت درجاته . وأن تجاوبكم معه واحد وإن اختلفت ألوانه . وكذلك موكب المؤمنين يا أحبايْ من كل الأجيـــال ، من مضى منهم ومن حضر ومن يأتي وكل عباد الله الصالحين في العالمين : إخوة لأب وأم وزملاء معهد واحد وأصحاب منهج في الحياة واحد ، إنما هم قلوب أضاءها النور الإلهي مصابيح متوهجة الشـــعلة متعددة الألوان ، وسقياها جميعاً من ذلك النبــع الأزلي الأبدي الساطع .

ها أنا أنصت عند باب الكعبة إلى الدعوات والأنين تجيش بها صدور الناس من أمكنة متفرقة ومن ظروف متفرقة وبلغات متفرقة فـــلا أراها إلا صدراً واحداً ينبض بنبض واحد بالإنغمار في تقديس الله والضراعة اليه واســـتغفاره واستهدائه الطريق .

وأتأمل في أفـكاركم ومشاعركم وسلوككم فـــلا أجد فرقاً بين ما عمر قلب أبوينا النازلين من السماء وقلب نوح الشومري وقلب إبراهيم البابلي وقلب موسى المصري وقلب المسيح الفلسطيني وقلب محمد المـكي .. إنكم قلوب أشرقت بنور الوعي ، وعقول تفتحت بفهم القوانين ، وهمـم توجهت إلى هداية الإنسان وصناعة تاريخه .

إني أرى من هذه البقعة أنواركم متصلة بنـــور الأنوار ومبثوثة إلى قلوب الأجيال ، وأشم ضراعتـكم عند هـذا الركن وأنتم في أقدس اللحظات فأراها ضراعة واحدة من قلب واحد إلى مولى واحد .

بركات الله عليكم يا سادتي ما أحبكم إلى العقل وإلى القلب وأروعكم ، مـا أعظم ما أثريتم به قلوب بني آدم وحياتهم ، ومـا أعظمكم الآن ثروة لقلوبنا وحياتنا .

لكننا نحن الذين سجنا أنفسنا في تافه السلوك وضيّق المفاهيم وحرمنا أنفسنا من رحابة الحياة التي عشتموها ودعوتمونا إليها .

الناس اليوم يا سادتي مصرّون على البقاء في سجن الفهم المادي للحياة ، وهم إن بحثوا عن حياة جديدة فإنما يبحثون عنها داخل سجنهم المنكود . وقليلون أولئك الذين رفضوا السجن وعاملوا المادة بفهمكم المعنوي وعاشوا آفـاق حياتكم الغنية .

فادعوا الله يا سادتي أن يأخذ بيدنا حتى نكسر السجن كما فعلتم ونخرج الناس من الظلمات إلى النور ، من عبادة العبيد إلى عبادة رب العباد ، ومن جوْر الأديان إلى عدل الإسلام .

اللهم يا رب الأنبياء الأبرار ، ورب عالمنا الضال ، متى يؤتي مشروعك في هداية الناس ختام ثماره ، متى يفيق عالمنا البئيس على هدى أنبيائك . سبحانك ما أطول أناتك حين أخضعت هذا المشروع إلى عمل الناس وعملك في آن .

* *

حدثيني يا كعبة الله ، عن خطاهم حولك ، وعن قبـلاتهم لأعتابك وعن أنفاسهم تصعد من ركنك الميمون ، عن القلوب الكبار التي اختلجت عنـدك بالأفكار الكبار وبالعواطف الكبار .

حدثني يا مسجد ، ففي كل بقعة منك صُفّت أقدامهم الثابتة ، وعلى ثراك

سجدت جباههم العالية ، واغ ورقت عيونهم بالدموع وعلى قلبك فاضت . حدثني عن دمعة واحدة في آناء الليل أو أطراف النهار لأبينا الطاهر آدم عليه السلام وهو يضرع إلى الله من أجل أبنائه ، أو عن دمعة حارة انهمرت من عيني محمد صلى الله عليه وآله وهو يطلب من الله أن يلطف بقوانين التاريخ التي ستجري على أمته .. كيف كان طعم تلك الدموع ، وماذا حملت من قلوبهم إلى قلبك ، وأين منها كل ماء السماء الذي باركه الله ..

حدثيني يا ربوات مكة : يا صفا ويا مروة ويا جبل قبيس ويا صفاح الروحاء ويا جبل الفداء ويا جبل النور ويا جبل الهجرة ويا بطاح عرفات والمزدلفة ومنى .. يا ربوات الأحبة وشعابهم ومدارج خطاهم ، أين اتخذوا منك مجلساً ومنبراً ، وأين اتخذوا منك معهداً للتربي على يد الله ، فما أكثر بقاعك التي احتضنت أحباي واهتزت لخطاهم فرحاً وجلالاً ، أو كادت تندك من وهج قلوبهم حينما كانت تنفتح على السماوات السبع أو ينفتح عليها وحي الله .

حدثني يا فضاء مكة ، يا هذا الشارع الممتد من أركان الكعبة إلى بيت الله المعمور في الملأ الأعلى ، ويا فضاء المسجد والربوات والبطاح : أيّ أنوار وأسرار لا زلت تحملها إلى الآن وإلى الأبد ، وكم من أحباي تنزلوا منك برسائل الله على أحباي وبالبركة على كل الطائفين العاكفين في هذه البقعة ، كم انشق صدرك لوفود الملائكة النازلين ، وأمواج الحنين والأدعية الصاعدة . يا له من صدر عامر لا يزداد إلا عمراناً وعطاء .

آه يا ديار الأحبة ومدارج خطاهم ، لو كان للمسلم أن يهرب من الناس لألقيت بنفسي في أحضانك حتى ألقى الله وألقاهم . لو كانت الجنة تنال بالعزلة عن الناس ، لو كان أحباي يرضون بالإعتزال في ربوعهم ويمنحون حبهم للصوفي الذي لا يعطي جهده للناس كما أعطوا .. لسعدت بالإنقطاع إليك وعشت في رُباك

أشم فضاءك وأقبـــل ثراك وأبث أحبابيَ من خلالك الوجد والحنين والدموع والهيام .. لكني يا أرض الله وديار أحبائه عائد منك إلى مسرح الناس فحدثيني من أحاديثك ما يكون عوناً لقلبي كلما أجهدني مسرح الحياة .

وأسرّح طرفي من على مبنى المسعى ، وأسرح عقلي وقلبي ، ويكاد كل شيء ها هنا يتكلم : الكعبة بأربعة أركانها بكل حجر مقدس فيها والمسجد والروابي والفضاء والحصى والتراب ، تكاد تنطق من قلبهـا المفعم أو تكتب حديثها على صفحاتها قرآناً لولا خشوع هذه الديار أمام حديث الله في قرآنه .

كأني بها تقول : أيهـــا المحب ، إن أحسن الحديث كتاب الله فاستمع إلى ما حدثك ربك عن أحبائك وأحبائنا وأسمعنا كي نخشع معك .

* *

يا لحديثك يا ربي عن أحبابي ، إنـــه مصوغ مثلهم بلاغة وجمـــالاً . أنت أخرجتهم لنـــا أدلاّء على حبك وطاعتك ثم أخرجت لنا حديثك عنهم دليلاً عليهم وعلى حبك وطاعتك .

وأجول بذهني في القرآن الكريم وأتابع ما يخطر ببالي من الصور التي قدمها لنا الله عن أحبـــائه وأحبائنا ، وأخشع لحكمته سبحانه كيف رسم حياتهم في لوحات نابضة ثم كيف وزّعها في دروسه لنا حتى أتمها بإتمام الدروس .

نحن نميل إلى القصص المسرود مدفوعين بنزعة الإستطلاع ونزعة الفضول . ويريد الله عز وجل بحديثه عن أحبائه أن يربينا ويحدّ من فضولنا ، فقد عمـد عز وجل إلى توزيع حديثه عنهم على عشرات الدروس . فصُور حياتهم وسائل إيضاح لنا لكي نربط بهـــا حركة أنفسنا وحياتنا . ووسائل الإيضاح إذا جمعت لم تعد وسائل إيضاح .

وإنما جاءت قصة يوسف عليه السلام جملة واحدة لأنها وسيلة إيضاح لدرس واحد لإرادته عز وجل في الرسالة والرسل كيف ينفذها بعفوية متينة من خلال كل التناقضات والجهود المضادة ، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون . أما بقية قصصهم عليهم السلام فقد جاءت موزعة لكل درس ما يجب له منها .

المهم عندنا نحن بحكم فضول الإستطلاع أن يحكي لنا الله عز وجل قصة أبوينا آدم وحواء من الألف إلى الياء في مقطوعة جميلة نتلوها في ليالي الصيف والشتاء . والمهم عند الله عز وجل أن يقدم قصتها في صور من حركة نفسيها وحياتها وظروفها خلال توجيهه لحركة أنفسنا وحياتنا .

إن هدفه عز وجل من الحديث عن أحبائه عليهم السلام لا ينسجم مع القصص المسرود فهذا الأسلوب لا ييسر لنا الوقوف عند فقرات حياتهم واستيعابها في فقرات مسيرتنا .

هدفه عز وجل أن يقدم لنا من قصة نوح عليه السلام منذ كان نجاراً صالحاً حتى أصبح الأب الثاني للبشر ، ومن قصة إبراهيم عليه السلام منذ كان فتى متأملاً حتى لاقى ربه ابن مئة وبضع عشرات من السنين وقد أرسى في الأرض أسس التوحيد ووطد أغنى فرعين من النبوات ، ومن قصة موسى عليه السلام منذ اصطنعه لنفسه وجعله يصنع من الصفر أمة ودولة ، ومن قصصهم جميعاً عليهم السلام .. ما يجعل منا امتداداً لمسيرتهم ويرشدنا إلى قوانين هدايته ونصره فينا وفيهم .

* *

آمنت بالله كم هو مدهش ومعجز هذا القرآن . طالما قرأت دروسه وصوره التي تتصل بهذه الديار وأهلها ولكني لم أجد يوماً من عطائها ما أجده الآن . طالما قرأت :

« والتين والزيتون ، وطور سينين ، وهذا البلد الأمين . لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم . ثم رددناه أسفل سافلين . إلا الذين آمنوا .. »

فخشعت لها ، ولكني هنا أصغيت لإمام المسجد يتلوها فانذهل لها عقلي وارتعدت لها أركاني . هذا هو سبحانه يقول :

أقسم لكم ببلاد التين والزيتون ، بالأمجاد التي شهدتها لهدايتكم وبأمجاد طور سيناء ، **وبأمجاد هذا البلد الأمين** ، وهي قمم الأمجاد ، أنكم خاضعون لقانون التكامل والتناقص ومؤهلون للسعادة بأحسن تأهيل ، فخذوا بالهدى واستقيموا ، ولا ترتدوا أسفل سافلين .

كانت هذه المعاني ترد إلى ذهني حينما أقرأ أو أسمع سورة الزيتون ، ولكني هنا أراها حدثاً يحدث أمامي ، أحس بالله عز وجل يقسم بما حفلت به بلاد الشامات وسيناء ومكة ، يقسم على قانون يحكم حياتي وحياة كل إنسان ، وأحس بالرسول صلى الله عليه وآله واقفاً خاشعاً ها هنا وهو يتلقى التأكيد من الله :

إنطلق في دعوتك فلا شيء يستطيع أن يكذبك بالدين . القانون جارٍ في الناس شاؤوا أم أبوا ، والدين ضرورة لهم بحكم هذا القانون . إصدع فيما أمرت ، فصاحب هذا القانون وصاحب هذا الدين وصاحب النتائج هو أحكم الحاكمين .

* *

وكانت في ذهني صورة لأنين آدم عليه السلام وبكائه على خطيئته ، ووحشته من الحياة على هذا الكوكب الذي يحتاج الإحساس فيه بالله إلى جهد ، والحصول على القوت منه إلى كدح .

ولكني هنا أقرأ عنه الآيات من كتاب الله ثم أنظر إلى مسرح السورة فأكاد أراه عليه السلام وقــد هبط على ربوة الصفا أسمر اللون فارع القامة في الأربعين من عمره متّشحاً بإزار ورداء والدمعة في عينيه والأنّة تملأ صدره وهو يرمق إلى السماء ويتفحص فيما حوله من الأرض والربوات فيرى أمّنا حواء على ربوة المروة مأخوذة بالعويل ، فيخطو إليها على دموعه ، وينظران إلى السماء فيريان الجنـة قد حجبت عنهما ، ويصغيان إلى الله فلا يسمعان شيئاً من كلماته ثم يمدان طرفهما فلا يجدان حولهما أحداً من ملائكته ، فيضجان بالنشيج والنحيب .

ثم يأتي الليل ويهوّم الظلام فيرهقهما البكاء ويحسان بالنعاس فيقول آدم لحواء: إذهبي يا حواء وباتي على تلك الربوة فأنا ذاهب إلى مكاني على ربوتي ، فلو كان ربنا راضياً عنا لأهبطنا معاً . فلنبك على خطيئتنا نهـاراً ثم ليبت كلٌّ في مكان هبوطه ليلاً !

وتمر أيام على هــذه الحال حتى ينشقّ الأفق أمامهما ذات يوم ويهبط منه جبرئيل فيتلقاه آدم بلهفة ويقبله بالدموع ويسأله :

— بماذا جئتني يا حبيبي يا سيد الملائكة ؟

— جئتك بهذه الكلمات . يقول ربك : قفا ها هنا ، ويأخذ بيدهما إلى مكان الملتزم من الكعبة ، وادعوا الله واضرعا إليه بقلبيكما ويديكما ، وعفرا جبينيكما على التراب .

— وهل رضي ربنا عنا ؟

— . . . .

— إذا دعوناه وتضرعنا إليه فهل سيرضى عنا ؟

— لا أملك لكمـا من الله شيئا ولم أؤمر بأكثر من تعليمكما الضراعة ، والله غفور رحيم .

— ألا تبقى معنا ؟

— لا أستطيـع يا سيداي . كان الله في عونكما وتقبل توبتكما .

وتمضي الأيام ويشهد الملتزم ضراعة الإنسان الأول واستغفاره .. كأني بأبوينا عليهما السلام واقفين في هذا المكان رافعين أيديهما يتلوان الدعاء ويهملان الدموع ويطلقان الأنين والإسترحام ويعفّران جبينيهما تذللاً لله ويقطعان على نفسيهما عهداً أن لا يعصيا له أمراً .. ثم يجن الليل فينسحب كل منهما إلى مقره .

وكأني بجبريل عليه السلام يهبط ثانية بالفرحة والبشرى ، ويتلقاه آدم بالدموع واللهفة ، فيبلغه من الله السلام ويبارك له رضا الله ثم يبشره بأن الله قد رحمكما وقبل توبتكما وأمرني أن أحمل اليكما هذه الخيمة من خيم الجنة وأنصبها لكما في جانب هذا الفناء وأعلمكما أصول الحياة على الأرض . وسوف أعود اليكما بما يأمرني عز وجل حتى تستوفيا مدتكما ها هنا .

كم مرة قرأت قول أبوينا في كتاب الله :

« ... قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين »

وقوله تعالى « فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه انه هو التواب الرحيم »

« ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى » .

ولكن في هذه الديار أعيشها صوراً تنبض وأحداثاً أكاد أتكلم مع أصحابها .. وأعود إلى الدروس التي استشهد فيها ربي بهذه الصور عن أبوينا فأحس بها توجيهاً بليغاً لنا في قضية الله معنا وقضيتنا معه عز وجل .

وأكثر ما يؤثر في نفسي من هذه الدروس أربع فقرات في سورة الأعراف يقدمها لنا سبحانه بعد حديثه عن أبوينا ويبدؤها بندائنا (يا بني آدم) ثم يتكرر هذا النداء الرباني الحنون في أول كل فقرة :

« يا بني آدم : قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوءاتكم وريشاً . ولباس التقوى ذلك خير ..

« يا بني آدم : لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة .

« يا بني آدم : خذوا زينتكم عند كل مسجد ، وكلوا واشربوا ولا تسرفوا .

« يا بني آدم : إما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي : فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم »

★ ★

وكانت في ذهني صورة لرحلة أبينا إبراهيم عليه السلام مع زوجه وولده من أرض الخليل إلى مكة ، وكيف قام ببناء البيت وأسكن اسماعيل ووالدته عنده ، وكيف استعد ذات يوم لأن يضحي بإسماعيل .. ولكني هنا أقرأ آيات هذه الأحداث ثم أتفقد مسرحها ، وأستكمل في ذهني ما لم يذكر من تفاصيلها ويا لبلاغة المشاهد .

هذا إبراهيم عليه السلام فتى بابل وشيخ فلسطين قد عاد لتوّه من توديع قافلة مصرية كانوا في ضيافته فأكرمهم وحدثهم ، ها هو يدخل داره الفسيحة في الخليل ، فيحس بقلبه يشير إلى الأفق فيقف منتظراً وإذا بجبريل يهبط ويتقدم اليه ويسلم عليه ويعانقه :

— يا خليل الله إن ربك عز وجل يقرؤك السلام .

— ربي السلام ومنه السلام واليه يعود السلام .

— وقد جئتك منه بأمر .

— سمعاً وطاعة لأمر ربي يا أخي ، وتفيض عيناه بدموع الخشوع .

— إن الله يأمرك أن تبني بيت أبيك آدم الذي ببكة . وتسكن عنده ابنك اسماعيل وأمه ، وتدعو الناس إلى حجه . تأهب خلال ثلاثة أيام وسر باتجاه تبوك ، وسوف أدلك على مكان البيت إن شاء الله .

يا خليل الله ، هل لك حاجة .

— سمعاً وطاعة لربي يا أخي ، وحاجتي اليه أن يرضى عني .

— أستودعك الله يا نبي الله.

— أستودعك الله أيها الملاك الطاهر.

ويستقبل الفتى اسماعيل أباه مقبلاً يده :

— يا أبت رأيتك وقفت ملياً في ساحة الدار ، خيراً يا سيدي

— يا إسماعيل أدع لي أخاك إسحاق وادع لي أمك ساره وأمك هاجر.

ويحضر الجميع ويجلسون هذا المجلس التاريخي . يبدأ إبراهيم :

— صلوات الله عليكم أهل البيت ، لقد أمرني ربي فيكم بأمر فانظروا ماذا ترون .

— سمعاً وطاعة لربنا ولك يا خليل الله . إمض لما تؤمر .

— أمرني ربي أن أذهب إلى بكة من أرض الحجاز وأجدد بيت أبينا آدم وأسكنك أنت يا هاجر وأنت يا إسماعيل عنده ، وأدعو الناس إلى حجه ثم أعود لأسكن مع سارة وإسحاق .

- سمعاً وطاعة لربنا ولك يا خليل الله .

وتجيء ساعة الوداع وتعتنق سارة مولاتها هاجر بالبكاء ويقبل إسماعيل يدي أُمه سارة ويعانق أخاه إسحاق بالدموع ويقبل ابن أخيه يعقوب ..

وتشهد أودية الأردن وصحراؤه قافلة متواضعة متجهة إلى ربوات الحجاز الشرقية : شيخ بهيّ الطلعة وامرأة كهلة وفتى شاب ، كلما قطعوا مرحلة نزلوا عن دوابهم وأدّوا لله صلاتهم واكتفوا من زادهم بما يشد الصلب ثم واصلوا المسير ..

وما أن وافوا تبوك حتى وافاهم جبريل عليه السلام :

- يا خليل الله بورك لك امتثالك لأمر الله . إذا وافتك جبالٌ فخذ منها اتجاه الجنوب الغربي .. لك حاجة ؟

- شكراً يا أخي .

وبعد أن عبروا تيماء وأمعنوا في جبال الحجاز الأولى وافاهم جبريل ثانية :

- السلام عليك يا خليل الله .

- وعليك السلام يا أخي جبرئيل ، لعلنا وصلنا أو نكاد .

- تصلون بإذن الله . إذا انتهيتم من هذه الجبال تظهرون على صحراء فسيحة فخذوا جانب البحر (الأحمر) ثم تجدون على يساركم وادياً منبسطاً بين جبال فاسلكوه ، وسأوافيكم هناك إن شاء الله .

وبعد شهر من الرحلة كانت القافلة تسير في وادي فاطمة فهبط جبريل عليه السلام :

– السلام عليك يا خليل الله .

– وعليك السلام يا أخي ، أراك تلبس كملابسنا !

– أمرني ربي أن أدلـّك على مكان البيت وأحببت أن أمشي معكم بقية هذا اليوم ، وما هو إلا الصباح حتى نوافي بكة إن شاء الله .

– مرحباً بك يا أخي ، ألا تركب ، ألا تتعب كما نتعب ؟

– أتعب دون تعبكم ، وأرجو الفضل من الله بالمشي في هذه الأرض المقدسة .

– ألا نترجل نحن تواضعاً لربنا واحتراماً لبيته ؟

– لا بأس بذلك يا خليل الله .

– بوركت يا جبرئيل من رفيق في السفر وملاك في السماء وأخٍ في حب الله وطاعته .

– وبوركتم يا أهل بيت الله وأحباءه .. ولو تعلم يا خليل الله ماذا أراد الله من تجديدك البيت ومن إسكانك فرعك عنده :

يا خليل الله إنه ستكثر الذرية من فرعك إسحاق وستكثر النبوّات فيهم وستجري عليهم وعلى الشعوب من حولهم سنن الله في التاريخ .. وقد أراد الله أن يكون فرعك إسماعيل وذريته في منجاة عند هذا البيت وفي هذه الشعاب والصحراء حتى يكون منهم رسول الأميين وخاتم النبيين .

يا خليل الله ، إن قلبي ليشتاق إلى رؤيته ويحب هذه الربوع التي ستشهد خطاه وجهاده . إنه عظيم الرسل وأحب الخلق إلى الله عز وجل .

— تبارك ربي يا أخي وتقدست أسماؤه ، قوله الحق وفعله الحـــق . له الحمد وله الشكر . اللهم اجعلنا عندك من المقبولين وبارك علينا في العالمين .

— يا خليل الله، أرأيت هذه الأودية شحيحة الماء والنبات لافحة الحر، لقد عمد الله عز وجل أن يجعلها كذلك يمتحن بها عباده ، ويبلغ بها أمراً قضاه بحكمته .

* *

— يا أخي جبرئيل ، كأنك لم تنم إلا لماماً هذه الليلة . تقبل الله صلاتك يا سيد الملائكة .

— لقد استرحت بهجعة قصيرة وصليت قسطاً من ليلي ثم أخذت أتنقل بين هذه الأودية والروابي وأنا أتفكر وأسبح ربي ، وإنمـا طلبت منكم أن تأخذوا كفايتكم من الراحة لأن وراءنا هذا اليوم عملاً . ها نحن يا خليل الله على أبواب حرم البيت : أحرموا لربكم عز وجل وأدّوا صلاة نهاركم وتناولوا طعامكم حتى ندخل على بركة الله .

— يا أخي جبرئيل أحس كأني أخطو في الملأ الأعلى في غمرة من روْح الله وقبيل من ملائكته .. إن لقلبي وجيباً عجيباً .

— لا غرو فإنه حرم الله ، وأنت خليل الله ونبيه .

يا خليل الله : هذه المنطقة ـ ويصفها له بجهاتها الأربع ـ هي حرم البيت ، أما البيت فهو أمـــام ذلك الجبل في واد صغير يمتد من الشمال إلى الجنوب .

وأشرف الركب المقدس على وادي بكة يمشون بالوقار والسكينة ويرددون الإجابة لله عز وجل (لبيك اللهم لبيك) ويسبحونه ويقدسونه حتى استقروا في جانب الوادي فأمرهم جبريل أن يضعوا متاعهم في ناحية ويتركوا دوابهم في الوادي وتقدم بهم إلى ربوة صغيرة في وسط الوادي حمراء دكناء فجثى عندها وتناول حفنة من ترابها يشمها ويبكي ويسبّح الله عز وجل ، وفاضت القلوب بالخشوع والأعين بالدموع ، وأخذ جبريل يوجز لهم تاريخ هذا البيت ومَن بَناه ومن عمره من لدن آدم عليه السلام ومن سيبنيه ويعمره إلى آخر هذا العالم ..

ثم نهض معهم لأداء مناسك الحج فطافوا بالبيت سبعاً وسعوا بين الصفا والمروة سبعاً ثم أهلّوا إلى عرفات فقضوا بها نهاراً ثم إلى المشعر الحرام ثم أمضوا ثلاثة أيام في منى ثم عادوا إلى الطواف والسعي .. ووقف معهم جبريل عند الربوة المباركة :

– يا خليل الله ، هذه مناسك زيارة البيت قد انتهت وقد أحللنا من إحرامنا .

يا خليل الله . إحتفر ها هنا بئراً ، وأشار إلى موضع زمزم ، فستجد ماءً عذباً مباركاً ، ثم أكشف هذا الرمل والمدر والحصى فستظهر لك قواعد بيت قديم فلا تنقضها ومكن أحجارها ، ثم ارفع بناء البيت أذرعاً واسقفه بأخشاب الأشجار التي أرشدتك اليها في عرفات ، ولتكن أحجار البيت من هذا الجبل ، وأشار إلى جبل الكعبة .

يا خليل الله ، إن الله بوّأكم هذا المكان المبارك وأمركم أن ترفعوا قواعده وتطهروا ساحته للطائفين والعاكفين والركع السجود ، وتعظموا حرمته وتمنعوا أحداً أن يلحد فيه بشرك أو جناية .

يا خليل الله ، إذا أتممت بناء البيت فاتخذ لإسماعيل وأمه مسكناً على مقربة منـه ، وسوف يجعل الله أفئدة من الناس تهوي إليهم ويتم فيـــكم نعمته .

بركات الله عليكم أهل البيت ، ألـكم حاجة ؟

★ ★

صلوات الله عليك يا سيدي يا خليل الله ، يا مجاهد بابل ، ويا مؤسس القدس ، ويا مجدد مكة ، ويا أبا الأنبياء الكبار ، وأبا التاريخ المجيد .

ها أنت أمامي تودع جبريل عليه السلام ثم تبدأ مع ولدك وزوجك باسم الله وعلى بركة الله تحتفرون البئر وتبنونها ، ثم تكشفون قواعد البيت وتنحتون الأحجار على نمطها ، وتقضون أشهراً في بنـــاء البئر والبيت والمسكن وتسوية ساحة الحـــرم .

يا أبا الأنبياء ، مـع أي صورة عنك أعيش . إن كتاب الله حافل بلوحات حياتك في بابل وفلسطين وها هنا .. ويا لها من حياة طاهرة مليئة ، ويا للدروس التي يقدمها الله لنا من خلالها . إن الصفحات لا تكفي لأن أسجل ما تابعته من أمجادك وخامرته من فكرك وروحك .

يتجسّد أمامي يا خليل الله :

صورتكم حينما بدأتم احتفار البئر .

وحينما كشفتم الربوة وأخذتم تشمون القواعد وتخشعون لله .

وحينما جـــاءكم ركب من قبيلة جرهم وسألوكم عما تصنعون فتعجبوا من حديثكم ومن الماء الذي رزقكم الله في هذا المكان .

وحينما تحدثتم ذات يوم وأنتم تبنون البيت عن خاتمة الأمم وعن خاتم الأنبياء فدعوتم الله :

« ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم . ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ، وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم. ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم ، إنك أنت العزيز الحكيم »

وحينما أتممت يا سيدي بناء البيت واقترب وداعك لإسماعيل وأمه ووقفت بين يدي الله في ساعة خاشعة تقرأ المستقبل وتخاطب الله :

« رب اجعل هذا البلد آمنا ، واجنبني وبنيّ أن نعبد الأصنام . رب إنهن أضللن كثيراً من الناس، فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم .

ربنا إني أسكنت من ذريتي بوادٍ غير ذي زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون .

ربنا إنك تعلم ما نخفي وما نعلن . وما يخفى على الله من شيء في في الأرض ولا في السماء .

الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق : إن ربي لسميع الدعاء .

رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي . ربنا وتقبل دعاء .

ربنا إغفر لي ولوالديّ وللمؤمنين يوم يقوم الحساب »

صور أعيش فيها يا أحبائي مع وعيكم الكوني العميق وتدفق أرواحكم

بالحياة .. وأكثر ما يؤثر في نفسي يا خليل الله صورة لك أراها أغنى مشاهد حياتك كلها ، بما فيها مشهدك وقد أوثقك البابليون ووضعوك على المنجنيق ليرموا بك في نارهم المضطرمة :

إنها صورتك حينما جئت ذات عام لتزور بيت الله وتزور ولدك وزوجك فوجدت هاجر قد أتعبها المرض فلم تستطع أن تؤدي المناسك معكم .. أتصورك وقد امتلأ صدرك عليها حناناً وأنت توصي بها زوجة اسماعيل تقول لها : إنها يا ابنتي خيرة الأقباط قد ملأ الله قلبها إيماناً وصدقاً فارفقي بها فإني أرجو الله أن يجعلك مثلها خيرة جرهم وأم ذرية مباركة طيبة ..

ثم مضيت مع اسماعيل وأديتما المناسك في عرفات ثم أفضتما إلى المزدلفة فقضيتما أكثر الليل تذكران الله وتصليان وتدعوان ، ثم أفقت في الصباح مهموماً متفكراً ساكتاً فتهيّب اسماعيل أن يسألك ، ثم أديتما صلاة النهار ، وقدم لك اسماعيل الطعام :

– لماذا لا تأكل يا سيدي ؟

– لا حاجة بي يا بني إلى الطعام

– يا أبت أراك مهموماً متألماً ، فهل حدث لأهلنا شيء !

– كلا يا بني

– هل أنبئت بشيء ؟

– خيراً يا بني .

وانحدرتما إلى منى ، اسماعيل يمشي خلفك : مطرقاً لهمك تارة وذاكراً لله تارة . أما أنت فعالم يموج بالتفكير ، ترمق السماء بطرفك والأرض ، وتقلب الأمر ذات اليمين والشمال تتساءل في نفسك :

– أيمكن أن يكون ذلك أضغاث أحلام ؟

– كلا ، فقد أخبرني ربي أن ما يأمرني به في المنام حق كالذي يأمرني به في اليقظة .

– ألم يعدني ربي أن يكون لي من ابني هذا ذرية ، فكيف يأمرني أن أذبحه ولم يرزق ولداً .

– تبارك ربي وتقدس ، وعده الحق ، وأمره الحق . لا تفاوت في أمر ربي .

– إيه يا نفسي منك أُتيت : لقد حرمت الذرية حتى بلغت الثمانين ثم رزقني الله اسماعيل وإسحاق ويعقوب فلم يكن أحد أحب إليّ منهم ، فأراد ربي أن يفجعني بأحدهم تربية لي أن لا يطغى علي حب ذريتي ، وأن يبقى حبه تبارك وتقدس أقوى من كل حب .

– يا إلهي وربي سمعاً وطاعة إن أمرك يا سيدي وحبك أغلى من اسماعيل ومن عنقي .

أتصورك يا سيدي كيف كنت تفكر وتكتم دموعك عن اسماعيل ، ثم كيف اتخذت في نفسك القرار وكيف ناجيت الله بأنين عميق مكتوم :

اللهم إني ماضٍ في تنفيذ أمرك ، فإن كان لك أمر غيره فأنت أبصر الناظرين .

أتصورك وقد أكملت المناسك في منى وأديت الصلاة في مسجدك فيها ثم جلست إلى إسماعيل وكلما هممت أن تكلمه انهمرت عيناك بالدموع ، فقال لك اسماعيل :

— بوركت يا أبت يا خليل الله ، إني لم أرك مهموماً كهذا اليوم ، ماذا حدث لك فدتك نفسي .

ثم أمسكت قلبك أن ينفطر ولم تستطع أن تمسك الدموع المباركة :

— يا بني : ان الله اصطفانا وهدانا وهدى بنا ، ثم شاء أن يمتحننا .. إن الله أمرني أن أذبحك قرباناً إلى محبته ودليلاً على طاعته . فانظر يا بني ماذا ترى ؟

— يا سيدي يا خليل الله ، هوّن عليك سمعاً لله وطاعة . يا أبت إفعل ما تؤمر . ستجدني إن شاء الله من الصابرين . يا أبت إفعل ما تؤمر ولك العزاء بالله ، ونعم الملتقى عند الله .

إن ذهني يا سيدي يتهيب متابعة المشهد بتفصيله ، كيف نهض اسماعيل وجاءك بالسكين وصلى لله صلاة الفداء ، وكيف وقفتما ورفعتما أيديكما إلى الله إسلاماً ، ثم كيف طلب منك أن تشده وثاقاً وتلقيه ساجداً على جبينه حتى يلقى الله مسلماً لأمره ، وحتى لا تضر العاطفة بك ولا به ، وكيف جثوت عند رأسه وقبضت على ناصيته وعلى السكين .

من الصعب أن أتصور قلبك كم عانى وكيف عانى وانتصر ، كيف احتمل هذه المعاناة ولم ينشطر ، وكيف ثبتت لأمواجه المصطرعة وكيف قدرت أن تسيطر عليها فتعطي لأمواج حبك للإنسان الحنين والدموع ولأمواج حبك لله الإدارة والفعل والفداء .

حياتك مليئة بالمواقف يا خليل الله ومليئة بالعطاء والتضحيات ، فقد شهدت منك أرض بابل وأرض فلسطين وأرض مكة حشداً متلاحقاً منها ولكن ما شهده مسجدك بمنى فاق ما كان قبله .

لقد انفتح الوجود بقلبه على هذا المكان يتابع ما يجري فيه ، فقد أتاح الله له فيك وفي ولدك درساً مبيناً كيف تصطرع إرادة المخلوق الملحّة مع إرادة الخالق ، وماذا تكون النتيجة للمخلوق إذا استطاع أن ينصر إرادة الخالق . وحينما أمت إرادتك وأخذت تنصر إرادة الله هتف لك الوجود بدموع الإكبار واللوعة ، ثم ما لبث أن هتف مصفقاً للنور يشرق من هذا المكان وللسماء تنفتح بعطاء الله وجبريل يحط في اللحظة المناسبة على سفح هذا الجبل يناديك باسم الله :

– يا إبراهيم يا خليل الله ، قف . لا تفعل . بورك فيك . قد صدقت الرؤيا ، وامتثلت أمر ربك .

ويتخطى الملاك صخور الجبل وينحدر اليك وهو يجر كبشاً من أكباش الجنة عظيم الجثة أقرن أملح بين عينيه شامة بيضاء، وتنهض لاستقبال جبريل فيعتنقك بالدموع، والكبش يشم قدميك وأثوابك ويشم اسماعيل، ويأخذ جبريل بكتفي اسماعيل فينهضه ويقبل عنقه وجبينه ويحل وثاقه ثم يأخذ السكين فيذبح الكبش باسم الله ويأمر أحد الملائكة أن يحمله إلى داركم هدية من الله لكم .. ثم يجلس اليكما يأمركما بأمر الله ويحدثكم بحديثه :

– يا خليل الله وصفيه ، ويا فداء الله وصفيه ، إنه ليس لله من حاجة في أن يذبح أحداً من مخلوقاته ولا في أن ينصر إرادته على إرادة المخلوق . ولكنها الحاجة للمخلوق حينما تتعارض رؤيته المحدودة مع رؤية الله الكاملة وإرادته لنفسه مع إرادة ربه له .

إن الله يبارك لكما يا سيداي تضحيتكما بإرادتكما ونصرتكما لإرادته فيكما .

إن المخلوق إذا استطاع أن يتخطى إرادته المحدودة وأن يسلم وجوده لإرادة الله في لحظة حاسمة فإنه يصبح محلاً لعطاء الله ،

وهذا عطاء الله لكما يا سيداي يغتبط بـه الملأ الأعلى ويتتابع لكما بغير حساب .

يا سيداي : ها هنا في وادي منى أمر الله أن ينصب للشر ثلاثة نصب (لعلها نصب لشر النفس والشيطان والناس) والشر إنما هو أنواع الإرادات المحدودة في المخلوقات ، وأمركم الله أن ترموا هذه الإرادات الخاطئة بالحصى رمزاً للبراءة منها وتسليماً لإرادة الله .

يا سيداي : إنه لا تفاوت في خلق الله ولا في وعده وأمره ، إنما السذاجة في المخلوق والإرادة المحدودة تخيل اليه التفاوت . وحينما يعجز المخلوق عن تفسير إرادة الله فيه أو في الوجود فلماذا يشط بهواه ويهدم صرح يقينه بغيوم الشكوك . وهنيئاً لكما يا سيداي استعلاؤكما باليقين بالله ، على شكوك النفس والشيطان والناس .

* *

صلوات الله عليكما يا خليل الله ويا ذبيح الله ، أما بعد يومكما فلم يأمر الله عز وجل أحداً بما أمركما ، واكتفى من النـــاس أن يرمزوا للبراءة من الرغبات المحدودة برجم هذه النصب ، وبقرابين مما رزقهم من الأنعام ، وترك أمر الإنتصار على الإرادة الضيقة للحركة الباطنة في نفس الإنسان وللتضحية بالنفس في معارك الرسالة مع أعدائها .

* *

يا أحبايْ يا أهل هذه الديار :

كنت أقول في نفسي : لو أردت أن أستقصي اللوحات التي رسمها ربي لـكم لوجب أن أعيش في ربوعكم زمناً طويلا .. فأنتم يا أحباء الله وأعزاءه المساحة الكاملة التي عملت في صناعة شخصيتنا وتاريخنا من أول يوم وحتى يومنا هذا .. وأنتم يا أحباء الله وأعزاءه المساحة الكاملة لحركة النفس البشرية ، في عمـق هذه الحركة واتساعها .. فماذا تكفي الساعات للإستيعاب من أمجادكم ؟

لكني وجدت نفسي أعيش معكم في دياركم لحظات هي من نوع الزمن النفسي، من نوع اللحظات الفريدة التي تستوعب شهوراً وسنوات .

في حياتنا يا سادتي سنوات هي كخط الإصبـع على صفحة الرمل الذاري ، طويلة ولكنها بلا عمق ولا عرض . وفي حياتنا لحظات هي في عمقها وتأثيرها كهزة الكهرباء للجسد أو كنفوذ البصر إلى عمق الذرّة . وما أكثر هذه اللحظات في ربوعـكم يا أحباء الله . إني بحاجة إلى الوقت الكثير لـكي أكتب مـا تعقّلته عنـكم وما أحسسته .

هذا حالنا نحن يا أحباء الله مع الزمن النفسي ، فكيف أنتم .

إني على يقين أنـكم عشتم قسطاً من أعماركم بهذا النوع من الزمان وليس بالزمان المنظور ، وإلا لما اتسعت أعماركم لهذا الإستيعاب والعطاء .

إن الأحقاب الطويـلة لم تكن كافية لصياغة شخصياتـكم لولا تلك الساعات التي طويتم فيها الزمن فوعيـتم فيها وتربيتم . والأحقاب الطويلة لم تكن كافية لأن تؤثروا في تاريخنا وأنفسنا هـذا التأثير لولا اللفح الباطني الذي استوعبتموه من تلك الساعات وأنجزتم به إنجازكم .

أحس كأننا جميعاً مدينون في غريزة النزوع إلى الغيب والحنـــين إلى الغيب لكما يا أبوينا ، لتلك الساعات التي عشتماها بعمق الحنين فطبعت تكوينكما النفسي والجسدي وأورثتنا إياه .

وبأننا مدينون في تذوق الصـبر على مرارته وتعقل العمل بالأناة الطويلة لك يا أبانا نوحاً ، ولآبائنا الذين تحملوا معك سنوات مديدة من الصبر الأليم الجميل في مراحل ما قبل النصر .

وأحس يا خليل الله بأن دورك الذي كلفك به الله ، دور تكوين عـالم ثالث يبدأ من طريق القوافل ما بين مصر وبابل ، ويضع بذرة المستقبل الواسع ها هنا عند بيت الله .. لم يكن لينهض به فتى بابلي يتيم لولا الساعات التي كنت تنفتح فيها على ملكوت الكون فتتعقل حقائقه وتتزود لهيباً باطنياً يفوق القوى الفاعلة في التاريخ .

وأحس يا كليم الله بأن انتصارك على فرعون وانتصارك إلى حين على التناقضات في أنفس بني إسرائيل وتكوينك في تلك المرحلة القاحلة من حياة الناس دولةً إسلامية .. هذا الإنجاز مدين لساعات التأمل والتعبد التي كنت تمضيها في بلاط الفراعنة وفي كوخ والديك ، ومدين لثمرات الجـوع والخوف والغربة والمناجاة التي عشتها في هجرتك إلى سوريا .

وأحس يا روح الله بأن الهزة التي أحدثتها في ضمير الركام الروماني اليهودي والتي امتدت بشكل وآخر إلى شعوب واسعة ولامست بشكل وآخر ضمائرهم وحياتهم.. كانت بفضل لياليك وأيامك المليئة بالتفكير النافذ والصلوات العميقة والمناجاة الملتاعة ، والجوع والبرد والفقر والتشرد والتبتل .

وأحس يا حبيب الله يا سيد المرسلين بأن الرقم القياسي الذي حققته في ضمير أهل الأرض وحياتهم من كل جانب لم يكن لينهض به يتيم من مكة لولا أن هذا اليتيم حقق الرقم القياسي في المعاناة الباطنية من كل جانب .

بلى إن هذا الإستيعاب في عمقه وسعته ، وهذا العطاء في عمقه وسعته إنما هو يا أحباء الله غرسة الأيام الوافرة التي تخطيتم بها الزمن الثقيل .

والوحي ، ويا للوحي .. أفق الصحو المبين الذي يفتحه الله عليكم فيقدم لكم منه في ساعة أو لحظات ما يشاء من حقائق الكون وخطى الطريق .. إنما هو التتويج الرباني لجهودكم ومعاناتكم والثمرة المباركة لغرسة الأيام والليالي المجيدة .. والله أعلم حيث يجعل رسالته .

تعال نبحث عن خطاه

تعال يا صاحبي نشارك الملائكة المكرمين ، فكم تنزلوا على هذه القرية وفوداً وأفراداً على كبير الرسل ، كم خدموه ورافقوا خطاه وواكبوا قلبه وتعلموا منه ، وكم ازدحموا عليه في موكب الهجرة .

وحتى هذا اليوم أتظن أن أحدهم حينما يستأذن ربه لزيارة بيته الحرام في الأرض يفوته أن يبحث عن خطى سيد الرسل . كأني بالواحد منهم يتطوف ملياً بكل بقعة تشرفت برسول الله صلى الله عليه وآله من مولده إلى هجرته ويتفكر ملياً ، ويصلي في مكان مصلاه ، ثم يعود إلى ركن البيت وعلى شفتيه دعاء ويعود إلى الملأ الأعلى وفي صدره أمنية : أن يحشره الله مع حبيبه محمد وفي أمته .

لم لا يا صاحبي ، ما دام الكمال بالحركة الباطنة ، بحركة النفس ، بالمعاناة والجهد الذي يبذله كل مخلوق .. فلم لا يكون الفائز الأول في هذا الجهد إنسان من الأرض ومن قرية مكة ..؟

ألأنا ألفنا الإنسان نسترخص الإنسان ، أو ليس كل واحد من هؤلاء الرائحين الجائين عالماً يموج بالوجود والحركة ؟

ألأننا نكبر المصانع والشوارع والعمارات نسترخص قرية مكة المتواضعة ؟

ولأن المستعمرين لقنونا أن العظماء رجالهم فقط ، نرطن بأسمائهم كالببغاوات ونتمسك بالمقياس الزائف للإنسان !

أما الملائكة فهم أوعى منا ، وأبصر بحركة التكامل في الموجود ، وأعرف بقيمته .

يتيم مكة عندهم إنسان أخذ طريقه قدماً في جهد الفكر والشعور والسلوك حتى استحق أن يخدمه كبراؤهم ويتعلموا منه . وبقاع مكة في أعينهم أفسح وأزهى من ربوع الملأ الأعلى . ومن ترابها وصخورها يشمون عبق الجنة .

تعال يا صاحبي نتعلم من الملائكة فنبحث عن خطى إنسان أنبته الله في مكة فاهتزت به الأرض وخضع له التاريخ واخضوضر به ضمير الإنسان ، وأشرقت به الآخرة ، وأحبه الله ولا زال يكرمه بغير حساب .

ليقل عنا الناس ما يقولون ، فرخص الناس في هذا العصر يشدنا اليه أكثر ويكبره في عيوننا صلى الله عليه وآله . وليقل عنا أهل مكة سوّاح أو عبّاد أماكن وأحجار ما دام باستطاعتنا أن يخفق قلبانا بالتوحيد عند البقاع التي حفظوها لنا عنه صلى الله عليه وآله .

ترى ماذا يحفظ أهل مكة من خطى رسول الله ومشاهده ؟

فهمنا منهم أن الأمكنة المعروفة هي :

مولد الرسول ، وهو بيت أبيه عبدالله .

وبيت أبي طالب الذي نشأ فيه .

ومولد فاطمة ، وهو بيت خديجة الذي بنى فيه أسرته وبنى منه الإنسان .

وجبل النور الذي بدأ فيه نزول الوحي عليه .

وبيت الأرقم بن أبي الارقم الذي كان يجتمع فيه سراً بالمؤمنين

وطريق الطائف الذي سلكه ، وبستان الطائف الذي آوى اليه .

وجبل الهجرة الذي استكن فيه أياماً ثم اتخذ طريقه في الهجرة .

وربوة الصفا وساحتها ..

والمسجد الحرام بكله ..

وكل هذه الأمكنة ما عدا الكعبة وجبل النور والهجرة تغيرت عما كانت عليه كثيراً ، وبعضها كان عليها قباب على شكل مزارات ، لكن حرص الحكومة على عقيدة التوحيد جعلها تقوم بإزالتها ، ثم سمحت للراغبين المتبرعين أن يقيموا مكانها مدارس ومكتبات .

مكتبة مكة :

هـذه الفسحة الصاعدة إلى حيث يلتقي جبل أبي قبيس بأخيه الجبل الآخر هي شعب بني هـاشم ، ويسمونها الآن « شعب عـلي » وفي يمين الشارع الممتد أمامها إلى معلى مكة : مكتبة مكة العامة .

قف ها هنا يا صاحبي فمكتبة مكة العامة هي بيت عبد الله بن عبد المطلب وهي مولد سيد الرسل صلى الله عليه وآله .

الوقت ظهيرة ، والمكتبة مقفلة ، ولا بأس ، فهذا الوقت أهدأ لتأملنا ونحن في ظل هذا الجدار المقابل لمولده أرواحنا فداه .

استحكم الصمت علينا لولا فضول أحد المارة يسأل ماذا نصنع وماذا نريد ، وصرفناه بالحسنى ، وعدنا لصمتنا المتأمل .

كان الزمن يشف أمامنا حتى لنكاد نسمع استبشار النسوة بمولود آمنة ونسمع بين كلماتهن همهمات بكائه الوديعة .. ونرى رسول عبد المطلب يصيح عند باب الدار : يقول شيبة الحمد إيتوني بُنيّ ، أريد أن أراه .. وتخرجه إحداهن ملفوفاً بثوب أبيض وتعطيه إلى رسول عبد المطلب قائلة :

يا له من مولود مليح إن فيه شمائل أبيه عبد الله .

فيقول لها : لم يخفق قلب عبد المطلب لوليد كما خفق لهذا ، لقد رأيته امتلأ سروراً حتى كأنه رضي عن فجيعته بعبد الله .

هذا عبد المطلب يحمل الوليد بكلتا يديه ويتأمل في ملامحه ويتذكر ولده عبد الله فتنحدر دموعه على شيبة الحمد وعلى صدر حفيده ، ثم يقبله ويتمتم عليه من دعوات آبائه ، ثم يقذف الله في قلبه أحب الأسماء إليه فيقول :

خذوه إلى أمه . سميته محمداً .

★ ★

في هذا البيت عاش مع أمه آمنة فكان أملها وسلوتها ، حتى أتم الله عليه نعمة اليتم بفقدها .

ومن هذا البيت تسلمته حليمة بني سعد .. وأعادته بعد سنوات ناشئاً مشتداً ..

وفي هذا البيت وحوله ، وفي بادية بني سعد ، وبينهما .. ما أكثر المشاهد وأجملها لأعز طفولة وأكرم طفولة .

ما مدى صحة الرواية التي تقول إنه كان يحدث أمه وهو جنين في بطنها ؟

ورواية تقول ان نساءً من أهل الجنة حضرن فأولدنها .

ورواية تقول إنه صلى الله عليه وآله ولد مختوناً ونطق بالشهادتين وسجد لله .

ورواية تقول إن أربع عشرة شرفة من إيوان كسرى سقطت يوم مولده إشعاراً بتصدع دولة المجوس .

وأن بحيرة ساوه جفت يوم مولده إشعاراً بنضوب دولة المجوس .

وأن عبد المطلب عرف أنه النبي الموعود .

وأن رهباناً وأحباراً وكهاناً وعرافين أخبروا بحدوث حـــدث يوم مولده .

وما رواية الملائكة الذين نزلوا اليه في بادية بني سعد فشقوا صدره وشقوا قلبه وأخرجوا منه مضغة وختموا بين كتفيه بخاتم النبوة ...؟

إني لأعجب من هؤلاء الرواة يتكلمون عن المولد والطفولة فيصورون أن كثيراً من الناس قد أحسوا بمجيء سيد الرسل وعرفوه ، ثم يذكرون أن أفراداً من أهـــل الكتاب سكنوا مكة بانتظار النبي الموعود ، وأنهم كانوا يرونه فلا يعرفونه حتى بعثه الله .

دع عنك يا صاحبي ظنوناً ومكذوبات ، فـلا يجوز أن ننصر حقه صلى الله عليه وآله بأساطيرنا .

أما أن تكون السماء احتفلت بمولده ، والملأ الأعلى استبشر ، فأمر غير بعيد. وأما الأرض فقد كان كل شيء فيها طبيعياً طوال طفولته وصباه .. والذي أراه معقولاً أمران إثنان :

الهداية الإلهية التي ساعدته في بناء شخصيته ، وإذا صحت الرواية عن علي عليه السلام « ولقد قرن الله به من لدن أن كان فطيماً أعظم ملك من ملائكته يسلك به طريق المكارم ، ويعلمه محاسن أخلاق العالم » فالأرجح أنه كان يحس بتعليم الملاك نوعاً من الهدى الباطني دون أن يسمعه أو يراه .

والأمر الثاني : شعور مـــن يراه صلى الله عليه وآله بتميز شمائله ومنطقه . وشعور من يعرفه برجاحة عقله ورفيــع سلوكه حتى أسموه الصادق الأمين .

أما أن أحداً كان يعرف أن هذا الطفل أو الفتى سيد الرسل ، فلا .

وأما هو صلى الله عليه وآله فكان يشعر برعاية الله الخاصة له ويتوقع من الله شيئاً : رسالةً أو نبوةً أو أمراً بإصلاح ، وما كان يرجو أن ينزل عليه كتاب .

وكذلك أهل الكتاب كانوا يعرفون أن مبعثه مكة ومهاجره المدينة ويعرفون صفاته العامة ، دون أن يعرفوه بشخصه .

وأما الكهان والعرافون والعرافات ، فحسبهم أن يأكلوا أموال الناس بالباطل ويعجموا لهم سجعاً مرصوفاً .

مدرسة النجاح :

ومـــا أن تصعد قليلاً في شعب بني هاشم حتى يواجهك طريقان في جانبي الشعب وما أنت بحاجة إلى أي منهما ، فبينهما تربض مدرسة النجـــاح وتحطّ جؤجؤها في الساحة أمامك .. وهي بيت أمضى فيه الرسول صلى الله عليه وآله سنوات عديدة من عمره الميمون ، بيت أبي طالب .

مدرسة النجاح ، لهذه البقعة ، اسم موفق .

أما لو كان الأمر إليّ وكان لا بد في هـــذه البقعة من مدارس لجعلت بيت عبد الله بن عبد المطلب محضناً وابتدائية لألف طفل من الأذكياء كل منهم اسمه محمد ، وكل واحد من معلميهم محمد ، وكل واحـدة من معلماتهم آمنة ، ولأسميت المدرسة « معهد الطفل المسلم » ووفرت لهم أن يعيشوا في جوّ طفولته المباركة صلى الله عليه وآله تفتحاً وهدياً وإيمانـــاً ، وتفوقاً في المستوى الدراسي على مدارس العالم .

ومثل ذلك للبنات الأذكياء في بيت خديجة وفاطمة .

وثانوية للفتيان الأذكياء في بيت أبي طالب .

أما دار الأرقم فأجعلها معهداً ومنبراً للمضطهدين من دعاة الإسلام .

يا مدرسة النجاح : كان يسكن فيك أبو طالب وزوجته فاطمة بنت أسد وابنتاهما أم هاني وجمانة وأبناؤهما عقيل وجعفر وعلي

وكان يسكن معهم غلام أجمعت قلوبهم على حبه وتقديره ، فما سمعوا بأعقل من قلبه ولا أزكى . إذا حدثهم استمعوا إلى منطقه الندي ، وإذا أشار برأي أقنعهم بنظرته النافذة ، وإذا غاب عنهم استوحشوا ، وإذا دخل الدار تهللت قلوبهم إطمئناناً ورضى .

وكانت فيك نخلة ذكرها رسول الله صلى الله عليه وآله ذات مرة في المدينة وهو يمتدح حنان فاطمة بنت أسد عليه وإيثارها إياه على أولادها .

كأني بها رحمها الله تلتقط من تحت النخلة في هذه الدار تمرات نضجت باكراً فتساقطت ثم تدخل الحجرة فتضعها فوق متناول الأولاد ، حتى إذا جاء محمد أخرجتها اليه بحنان قائلة : كلْ يا بني ، ويأخذها محمد شاكراً خجلاً ، فيعطي أولاد عمه ، ويصر على أمه فاطمة أن تأكل منها ، ولا يُبقي لنفسه إلا اليسير .

* *

وعند باب هذه الدار وقفت الأسرة لتودّع كلها أبا طالب في رحلة الصيف إلى الشام، ووقف بينهم محمد وقد خنقته العبرة واحتدم البكاء في صدره فبكوا لبكائه . وأقبل أبو طالب وقد سوّى الرحال وأنهض الجمال فقال : ما بكم ؟ قال أحدهم : إن محمداً خنقته العبرة يريد أن يذهب معك . فاحتضن أبو طالب محمداً يشمّ منه عبق أبيه وجده ويبكي ، ثم يمسح دموعه ودموعه ويقول له : هوّن عليك يا بني فوالله لا أبرح حتى ترحل معي ..

هيئوا لمحمد متاعه ، ويا غلام أوقف الرواحل ، أريد أن آخذ محمداً معي .

* *

وإلى باب هذه الدار مشى يوماً رجلان وطرقا الباب فاستقبلهما أهلها بالبشرى والمحبة ، إنهما محمدٌ وحمزه . جلسوا جميعاً فأطرق محمد إطراقته الخجلى ثم بدأ الحديث :

يا عم أنت منا بمكان الأب الشفيق ، وقد ذكرنا قلّة ذات يدك وكثرة عيالك ، والناس في هذه المجهدة من القحط ، وقد رأينا أن نخفف عنك بعض عيالك فيأخذ حمزة أحدهم وآخذ أنا أحدهم .

قال أبو طالب : يا عزيزيّ شكر الله صنيعكما ، أتركا لي أكبرهم يعينني على أمري .

واختار محمدٌ علياً ، واختار حمزة جعفر . والتفت محمد إلى أم طالب :

يا أماه اطمئني عليهما فإني لأرجو أن يكون لهما في أم عمارة وخديجة أماً حنوناً معك .

وخرج الطفلان من مدرسة النجاح ، ودخلا في جامعة النجاح .

* *

وهذه الدار كم شهدت من براعة المفاوضات في خضمّ الأحداث والمشاكل التي واجهتها دعوة الإسلام .

كم مرة جاء اليها عتاة مكة ، دهاة أنديتها ، وممثلوا قبائلها ، إلى أبي طالب حانقين مزمجرين شاكين من دعوة ابن أخيه ، فهدّأهم وأخمد نارهم وطوق مكائدهم .

كانت الدعوة تمتد في مكة ، تكتسب العناصر ، وتكتسح المواقف ، وأمام كل نصرٍ جديد يشعر قادة المشركين أن الأرض تهتز من تحتهم فيهرعون إلى أبي طالب فيتلقاهم ببراعته ، ويضمن للإسلام فرصة جديدة قبل أن ينفجر الموقف .

ليتنا نعرف أكثر عن هذه المفاوضات التي امتدت سنين فأعطت خير الثمار .

وليتنا نعرف أكثر عن آخر جلسة عجز فيها أبو طالب عن إقناعهم حتى بالإنتظار قليلاً ، فخرجوا من هذه الدار مصممين لا يلويهم شيء وعقدوا اجتماعهم في أحد نواديهم واتخذوا قرارهم بالإجماع : أن لا يتعامل مع بني هاشم من أهل مكة ومن يطيعهم أحد ولا يكلمهم أحد . وكتبوا وثيقة القطيعة وأقسموا عليها بما يعبدون وعلقوها داخل الكعبة .. فكان ما سمي بحصار الشعب ، سنتان أو ثلاث سنوات . وكان بنو هاشم وبقية المسلمين بمستوى هذا الحصار الإقتصادي والاجتماعي وبمستوى العداء السياسي حتى نصرهم الله .

وليتنا نعرف أكثر عن القوة الجديدة التي اكتسبها أبو طالب في المفاوضة بعد أن سلّط الله الأرضة على ميثاق القطيعة فأكلته حرفاً حرفاً وتركت منه أسماء الله عز وجل !وأخبر الله رسوله بذلك فتهلل أبو طالب فرحاً فبادر إلى المشركين وعاد بفك الحصار وبتمزيق الوثيقة ليستأنف الإسلام مرحلة جديدة وتستأنف هذه الدار دورها في كسب الوقت للإسلام .

* *

ومشهد في ذهني عن هذه الدار يوم دخلها عليٌّ مستعجلاً فرحاً فتلقته أمه ابنة الستين أو السبعين :

ما وراءك يا بني ؟

قال: يا أماه لك البشرى لقد نجا رسول الله صلى الله عليه وآله، لقد نصره الله وأخزى المشركين فلم يعثروا عليه. ولقد جاءني رسوله أبو واقد الليثي وأخبرني أنه أمعن في طريقه إلى المدينة، وأن الله أخبره أن جعفراً ومن معه من المسلمين نجوا وأمعنوا في البحر إلى الحبشة. ويأمرني رسول الله أن أهاجر بكنّ على الفور وأنه لا يدخل المدينة حتى نصل اليه.

وتبكي الأم بدموع الإيمان والفرح ويتابع عليّ:

يا أماه إذهبي إلى فاطمة بنت رسول الله وفاطمة بنت حمزة وأم أيمن وبشريهن، فعليّ أن أؤدي للناس أماناتهم عند رسول الله صلى الله عليه وآله، وأن أتجهز للهجرة.

* *

وعند هذه الدار وقفت ثلاث رواحل، تحمل إحداها فاطمة بنت أسد وفاطمة بنت رسول الله. وتحمل الثانية فاطمة بنت حمزة وأم أيمن. والثالثة لعلي وأيمن وأبي واقد الليثي.

وكأني ببنت أسد أمسكت عبرتها واستجمعت نفسها وأطلّت من الهودج تنظر تارة إلى عقيل، آخر من بقي من أبنائها في الدار، تراه مطرقاً برأسه وعلي يكلمه. وتارة إلى الدار بغرفها وساحتها ونخلتها، وعمرٍ فيها حافل، وأحداثٍ فيها عزيزة، وأخرى غريبة، وأخرى أليمة..

ومضت قافلة علي والفواطم تستعلي بإيمانها على كيد المشركين، وتلتحق برسول الله في أرض الإسلام الجديدة.

حناناً لهجرتك يا ابنة أسد، يا أم رسول الله.

لك العوض عـــن دور الدنيا وقصورها بإيمانك بالله ورســـوله ، وبفرحتك بنجاة رسول الله ، وبغرفتك المتواضعة في المدينة بجواره ، وبقلبه الكبير يحنو عليك في هرمك وبقميصه يُقدّمه لكفنك، وبمثواك يسوّيه بيديه ويبلّ ثراه بدموعه .

ثم لك العوض بـــداركم في الجنة على ربوة من ربواتهـــا الفسيحات الخالدات ، وأن يقال عنك عند الله : حاضنة سيد المرسلين والحـــانية عليــه .

مولد فاطمة :

وعند دار خديجة يصعب عليك الوقوف ويصعب التأمل لولا أن مشاهد أعظم حياة على الأرض تسمّر قدميك وتنتزع ذهنك .

الدار في مجموعة من الأبنية على مرتفع مطلٍّ على المسجد ، وفي سوقٍ فرعية تتصل بأكثر من سوق . ولا عليك من حركة الناس ، فباستطاعتك أن تقف بين الأكشاك المتواضعة في الجانب المقابل للدار أو تجلس على الأرض مع أحد الباعة تشتري منه شيئاً وتحدثه قليلاً ثم تتجه إلى حديث الدار ..

ثمان وعشرون سنة أمضاها سيد الرسل في هذه الدار ..

ربع قرن مع خديجة ، وثلاث سنوات بعدها ..

خمس عشرة سنة من أسعد ما يكون زوجان رفيعا السلوك متسقةٌ لهما الحياة . وعشر سنوات أسعد ما يكون زوجان يتلقيان أشد المصاعب والآلام في سبيل رسالة الله .

كانا متشابهين في النشأة متميزين في الشخصية ، وكان أحدهما يسمع بالآخر ولا يعرفه حتى أراد الله أن يُهيء لرسوله سكناً وسنداً وأمّ ذرية .

وكان النـــاس يتأهّبون إلى رحـــلة الصيف ، يُعدون تجارتهم ورواحلهم ورجالهم ، وقد هيأت خديجة تجارةً من اليمن ومـمـــا يرد إلى مكة ، وأخذت تبحث عن رجل عارف مأمون يذهب بتجارتها ويكون له نصيب من ربحهـا . كانوا يعرضون عليها أنفسهم فتشكرهم معتذرة ، ويذكرون لها الأسماء فتصمت أو تقول لا ، حتى قال أحدهم : أين أنت عن محمد بن عبد الله في رجـــاحة عقله وكريم هديه وعظيم أمانته ، فارتاحت إليه وقالت نعم .

وعاد رسولها من عنده يقول إن محمداً يستمهلك إلى غدٍ حتى ينظر .

وجاء محمد إلى عمه أبي طالب يقول له : يا عم لقد أرسلت إليّ بنت خويلد لأذهب بتجارتها إلى الشام وتجعل لي نصيباً فوق ما تجعله لغيري ، وهذه تجارتنا في العطر والبُر لا تكاد تسد الرمق ، وقد وقع في قلبي أن أستجيب لطلبها لعل الله يرزقنا ما يسعنا ، فماذا ترى ؟

قال أبو طالب : كما تشاء يا ابن أخي ، إني لأرجو أن يفتح الله عليك .

وعاد محمد من الشام وبعث البضائع مع ميْسرة ، ودخل ميسرة إلى هـــذه الدار يبشر خديجة بالربح الوفير فيما باعوا وفيما اشتروا ، ويفيض لهـا الحديث في شغف وإعجاب عمـا رآه من محمد في حلـّه وترحاله ، عن قلبه الكبير ، عن حبه للناس ، عن تأمّلاته في كل ما يراه ، وعن شخصيته التي تشدّ من عرفها وتفرض عليه التقدير والحب العميق .

كان ميسرة يحدثها عن محمد فيحدثها عن أكثر من الصورة التي تحملها فينفسها لمن تريده زوجاً . ولم يعرف ميسرة ، قبل أن تنتهي أحاديثه في اليوم الأول ، أن خديجة قد اتخذت القرار .

وباعت خديجة بضائع الشام فأضعفت ربحاً أو كادت فأخذت قسطاً وفيراً من الربح وبعثت به إلى محمد مقدرةً شاكرة .

ثم لم تفعل كما تفعل النساء حينما ترغب إحداهنّ برجل زوجاً فتسعى ليكون هو المتقدم إلى طلبها ، بل بعثت إليه أني قد رغبت فيك لأمانتك وحسن خلقك وصدق حديثك ، وما حدثني ميسرة عن فضلك ، فإن كنت راغباً فيّ فأرسل إلى قومي من يخطبني .

وتفكر محمد في الأمر ، وتشاور مع عميه حمزة وأبي طالب .. ثم شهدت هذه الدار خطبة الزواج الفريد :

حضرها من قوم خديجة عمها ورقة بن نوفل وآخرون ، وجلست هي ونساؤها خلف ستارٍ بحيث يسمعن الكلام . وأقبل أبو طالب في أهل بيته ومعه نفر من قريش واستقر بهم المجلس فابتدأ أبو طالب بالكلام فقال :

« الحمد لرب هذا البيت الذي جعلنا من زرع ابراهيم وذرية إسماعيل وأنزلنا حرماً آمناً وبارك لنا في بلدنا الذي نحن فيه ، ثم إن ابن أخي هذا ـ يعني محمداً ـ ممن لا يوزن برجلٍ من قريش إلا رَجح به ، ولا يقاس به رجل إلا عَظُم عنه ، وإن كان مقلاً في المال فإن المال رفد جارٍ وظلٌ زائل ، وله في خديجة رغبة ولها فيه رغبة ، وقد جئنا لنخطبها إليك برضاها وأمرها ، والمهر عليّ في مالي ، الذي سألتموه عاجله وآجله »

ثم سكت أبو طالب وتكلم ورقه بن نوفل فتلجلج وقصر عن جواب أبي طالب وأدركه البَهر ، ولم تنفعه ثقافته ، فما كان من خديجة إلا أن تداركت الموقف وقالت مبتدئة : يا عماه إنك وإن كنت أولى بنفسي مني في الشهود فلست أولى بي من نفسي ، قد زوجتك يا محمد نفسي والمهر عليّ في مالي !..

فقال بعض قريش : يا عجباه ، المهر على النساء للرجال !

فغضب أبو طالب وقام على قدميه وكان ممن يهابه الرجال فقال :

« إذا كانوا مثل ابن أخي هذا طُلبت الرجال بأغلى الأثمان وإذا كانوا أمثالكم لم يزوّجوا إلا بالمهر الغالي » .

وفي اليوم الثاني نحر أبو طالب ناقةً وأولم بها ، وزُفّ رسول الله صلى الله عليه وآله إلى عروسه ، وعندما وضع قدمه على هذه العتبة ولدت هذه الدار : عرساً في تاريخ أهل الأرض وأهل السماء .

* *

وساحة هذه الدار العامرة كم مرة هبط فيها الروح الأمين ، وكم شهدت لياليها من صلوات رسول الله ومناجاته .

كان أكثر مبيته في هذه الساحة ، فالبرد في مكة زائر طائف ، وكان يأمر فيضعوا عند رأسه وضوءاً مغطى بمنديل وسواكاً فإذا نام جزءاً من الليل استيقظ فاستاك وتوضأ ثم نظر ملياً في السماء وتلا من آيات ربه ثم صلى أربع ركعات ، ثم عاد إلى فراشه فنام جزءاً من الليل ونهض فصنع كما صنع أول مرة ، ثم عاد إلى فراشه فينام حتى يكون الوقت قريباً من الفجر فينهض ويستاك ويتوضأ ويتأمل في السماء ويتلو ثم يصل النافلة بصلاة الفجر .

كأني به ذات ليلة ما ان اعتدل من فراشه أول مرة حتى جاءته خديجة :

– السلام عليك يا رسول الله .

– وعليك السلام يا أم القاسم ، خيراً إن شاء الله .

– فدتك نفسي يا رسول الله ، أحببت أن أصلي وأدعو ربي معك .

- أخشى أن يكون ما أسهرك ، فليس من عادتك أن تنهضي لمثــل هذا الوقت .

- أسهرتني يا رسول الله نعمة الله عليّ . فقد حدث أن بعثت ابنتي إلى فلانة لتسعفني في بعض شغلي فعادت إليّ بجوابها : « قولي لأمك لن آتيها بعد اليوم فوالله ما جرّت عليّ معرفتكم إلا ندما ، لقــد أصبحت بغيضة عند نساء قومي ، أو لا تعلم ماذا صنع زوجها في مكة ، لقد أوقد ناراً في كل بيت وفرق بين الأب وابنه ! .

فكبرت علي مقالتها وجلست في جنب الدار أذكر مــا كنا فيه من سعة ومن تهافت الناس علينا ، وما صرنا اليه من ضنك وقطيعة فأخذت أبــكي ، وتجمعت حولي بنيــاتي يبكين لبكائي حتى دخل عليٌّ ونحن بتلك الحال ، فوقف علينا وقال :

مــا يبكيك يا أم القاســم ، إن إمرأة من قريش أنعم الله عليها برسوله وجعلها مع آل إبراهيم وآل عمران .. لغــير جديرة بالبكاء .

جزى الله علياً خيراً ، فما شعرت يوماً بعظيم نعمة الله عليّ وصغر الآلام في جنبها كيوم أمس ، فدعوت ربي عز وجل أن لا تشغلني بعد اليوم مصيبة عن نصرة دينه وشكر نعمته ، وآليت أن لا تفوتني معك صلاة أو دعاء ..

فدتك نفسي ، أريد أن أقتدي بهــداك وهدى الصالحين من آل إبراهيم وآل عمران .

* *

وكأني به صلى الله عليه وآله دخل هذه الدار ذات مرة فتلقّته خديجــة فبادرها بالسلام وقال لها :

— لك البشرى يا ابنة عم فقد أخبرني جبريل عليه السلام أن الله عز وجل قد تقبل منا نذرنا ووهب لك حملاً زكياً ، وإني لأرجو أن يعوّضنا الله به عن القاسم والطاهر والطيب ويبارك عليه في الآخرين ..

فتهللت خديجة فرحاً ووقفت في ساحة الدار أمام ربها شاكرة باكية .

* *

وفي هدأة إحدى الليالي مشى رسول الله صلى الله عليه وآله على مهل إلى حجرةٍ في هذه الدار ينام فيها علي وأيمن ابن أم أيمن ، فأيقظ علياً وأشار اليه أن يتبعه ، فلما جلس معه في حجرة ثانية أطرق رسول الله قليلاً ثم قال :

— يا عليّ ما أنت باذل في نصرة الله ؟

— نفسي يا رسول الله ، فدتك نفسي .

— بارك الله فيك يا ابن عم ، لقد أيقظتك لأمر خطير : أخبرني جبريل عليه السلام لتوّه أن المشركين أجمعوا الليلة على قتلي وقد انتدبوا لذلك فاتكاً من كل قبيلة من أجل أن يضيع دمي بين القبائل ، وأنهم آتون غسق هذه الليلة حتى إذ اطمأنوا أني نائم في فراشي في ساحة الدار حملوا عليّ بأسيافهم .

وقد أمرني ربي أن أهاجر من ساعتي هذه ، وأخشى أن يكون لهم رَصد فإذا رأوا فراشي خالياً تبعوني .

يا ابن عم ، نم في فراشي واتشح ببردتي الخضراء ولا تنهض حتى يعالجوا الباب فيفتحوه ، وأدفعهم بالحسنى ، ولا تضربهم حتى يضربوك . والله حفيظك منهم ونصيرك عليهم .

فبكى عليٌّ وقال : أو تسلم أنت يا رسول الله ؟

فقال : أسلم بإذن الله وينصرني الله ، وإذا كتب الله لك النجـــاة فأوصيك خيراً بأيمن وأم أيمن فإنها مؤمنان بران ، وبفاطمة ابنتي فانها زكية مطهرة وهي بعد محزونةٌ على أمها مهمومةٌ على أبيها ، وبفاطمة ابنة عمي الزبير فإنها أختي من الرضاعة ، وهـــذا برهابنا منذ افتقدنا خديجة ، وأوصيك خيراً بأمك فإنها أمي .

وهـــذه أمانات الناس تعرف أنت أصحابها ، فإذا جاءك رسولي فأقم منادياً يدعو الناس إلى أماناتهم ثم هاجروا إليّ جميعكم .

وانسلّ عــــليٌّ إلى الفراش واتشح بالبردة كأنه رسول الله ، ونام إلى جنب سيفه أبعد ما يكون عن النوم . وانسحب رسول الله صلى الله عليه وآله مع جانب الدار ، وفتح الباب بهدوء وهو يتلو آيات ربه ، ونظر يمنةً ويسرةً ثم اتجه جنوباً وهو يتلو آيات ربه .

* *

وآخر صورةٍ ترتسم في ذهني عن هـــذه الدار يوم دخلتها فاطمة بنت أسد تنشر البشرى بنجاة رسول الله صلى الله عليه وآله ، فخفقت حولها قلوب الإيمان ينتعشن بالبشرى ويستقصين الخبر .

قالت فاطمة الزهراء وهي تتنفس الصعداء : الحمد لله ثم الحمد لله ، ما دخل على قلبي سرورٌ منذ فقدت أمي كسرور هـذه الساعة ، وكم كدت أبلغ اليأس لولا وعد الله عز وجل وأمره إيانا بالصبر . يا لعظيم ما لاقى رسول الله يا أمـاه منذ افتقدنا عمي وأمي ، وقـــد أخبرني أنها أشد سنوات على نبيٍّ بعثه الله .. ولقد رأيتني يوم عـاد من الطائف ومكث خارج مكة لا يأمن على نفسه أن

يدخلها لا أبصر طريقي إلى باب الدار . الآن حق علي الشكر لربي . اللهم إيماناً بك وتصديقاً لرسولك، يا من بنور وجهه أضاءت السماوات والأرض وصلح بـــه أمر الأولين والآخرين .. وفاضت دموعها ودخلت إلى حجرتها تسجد لله وتشكره .

وقالت فاطمة بنت حمزة :

اليـــوم نقسم عليها أن تأكل فوالله ما ذاقت منـــذ فارقنا رسول الله إلا أقل البُلغة .

ولحقن بها وجلسن حول مصلاّها ، فقالت فاطمة بنت أسد :

بُنيّة يا زهراء : لقد أمر رسول الله علياً أن يهاجر بنا وأنه لا يدخل المدينة حتى نصل إليه ، وقد ذهب علي وأيمن يقيمان منادياً في المسجد على أمانات رسول الله ويتجهزان للهجرة .

بُنية يا زهراء ، أقسمت عليك إلا رحمت نفسك وتناولت طعامك وآويت إلى فراشك ، فإذا كان الغد فتجهزن بأيسر المتاع وتعالين إلى دارنا لكي نهاجر على بركة الله .

قالت الزهراء : قسمك برٌّ يا أمـــاه ، أعانك الله وأعاننا وكتب لنـــا الخير عنده .

وفي الغد قالت أم أيمن لفاطمة بنت حمزة وهما تمشيان خلف الزهراء :

كنت أخشى عليها أن يأخذها البكاء وهي تودع بيت الله ، ولكني رأيتهـا مستبشرة وإنمـــا تبكي بدموع الرضا . كان دعاؤها في طوافها وصلاتها الشكر وطلب النصرة لرسول الله ، أما الآن فإني أخشى عليها من وداعها لقبر أمهـا ، فإذا رأيتها انكبت على القبر فلنستعجلها الرجوع .

ولم يحدث ما خشيت منه أم أيمن رحمها الله، فقد وقفت الزهراء على قبر أمها خديجة وما هي إلا هنيهة حتى أمسكت دموعها وأوقفت أنينها وقالت :

السلام عليك يا أمـاه من ابنتك فاطمة ، أشهد أنك عشت حميدة ومضيت سعيدة . هنيئاً لك يا أماه ما قدمت به على ربك : آمنت برسوله وقـد كذبه الناس ، ونصرته وقد خذله الناس ، وبذلت أموالك في سبيل الله ، وصبرت على عظيم ما لاقيت .. فجزاك الله عن رسوله خيراً .

بشراك يا أماه فهذا وعـد ربنا عز وجل .. حتى يتم نصره ويظهر دينه على الدين كله . ثم رفعت يديها داعية :

اللهم أعني على مـا أعنت عليه أمتك خديجـة حتى تجمع بيني وبينها في مستقرّ رحمتك .

وعادت وهما تمشيان خلفها حتى رأتاهـا اتجهت إلى بيت أبي طالب فقالت فاطمة بنت حمزة : يا سيدتي ألا نذهب إلى الدار فنأخذ متاعنا ونسوّي أثاثها ونُحكم بابها ؟

قالت الزهراء : إذهبن فأتين بالمتاع وسوّين ما بدا لكن . عند الله أحتسب دار أبي رسول الله ودار أمي خديجة. اللهم حبب إلينا طاعتك واشملنا برضاك، وكل مصابٍ دون غضبك جلل .

إلى حـــراء :

يا صاحبي إلى حراء ، إلى جبل النور .

أيسر ما يكون من الثياب وأطهرها ، وقليلٌ من الزاد ، وشيءٌ من مـــاء زمزم ، ويقظةٌ في العقل والشعور ؛ فالرحلة إلى حـــراء ليست كالرحلات ، والصعود إلى جبل النور ليس كالصعود إلى الجبال .. ألا تراه متميزاً عن غيره من الجبال ؟ أنظر إلى قمته الخالدة ..

ما أكثر الجبال في العالم ، وفي الحجاز . وطابع قممها الكبرياء ، أو العنف ، أو التصدع ، أو الجمال ، أو الذل ، أو المرح ، أو أي شيء مما نألف . أما قمّة جبل النور فطابعها الجلال والخشوع ..

لكأنما كان الجبل كلّه قمة ثم قيل له اخشع ولا تخف ، فذلّل كتفيه و كشف عن رأسه الآخذ بالمشيب ، فأمطر الله عليه من نور جلاله ، ثم قال له : أما قمتك فلا يرقاها إلا الطيور أو ما يتنزل عليك من السماء ، وأما سفحك فلا مطمع فيه للصيادين والرعاة ، وأما الغـــار الذي على كتفك فليبق متجهاً إلى الكعبة ، واحتفظ به فإن له شأناً .

عندما تهبط من جبل النور وفي طريق عودتك والعرق يتصاب عنك ، تشعر بأنك كنت تستحم في نهر من أنهـار الجنة : دمك عاد جديداً ودورته نقيه . وطعم الحياة جديد في قلبك .

الأرض قريبة من السماء ، والحي القيوم يسمع همسات النبتة لأختها وحديث الصحراء في نفسها .

والغيب ، والوحي ، والقرآن ، والرسول ، والإسلام ، والناس ، وجبل النور ، وحراء .. كل ذلك جديد ، فقد استحم فكرك واستحمت مشاعرك بنظرة جديدة سعيدة تنعم بها مع من حولك ، وتنعم بهـا في صلاتك ، وفي نفسك ، وتأوي بها إلى فراشك ، وتستيقظ على طعمها . ويجيش بها صدرك كلما سمعت باسم جبل النور أو استعدت مشاهد جبل النور .

وفي طريقك إلى جبل النور ، إذا كنت مترفاً فسيجد الشيطان إلى نفسك سبيلاً ، والترف حالة نفسية قد تكون في الفقير كما تكون في الغني .

تترجّل من السيارة على رملة ما فيها إلا شجيرات مجاهدة ، وعوائل نبات نسيت من طول كفاحها نعومة النبات . وتنظر إلى صخور السفح الضخمة تحكي تراكم التاريـخ . وتتطلع إلى القمة وإلى ما دون القمة فلا تجد اليها مسلكاً إلا في التعاريـج الصعبة فتقول في نفسك : ما لي وللصعود إلى هذا الجبل . ويقول لك الشيطان : مـا لهذا الجبل الوعر اختـاره الله لوحيه ، وما لمكة جعلها عاصمة أرضه !

وإذا كنت صناعياً تفكر في الثروة فإن التماع الصخور الحديدية ورائحة النفط والذهب ستبعث في نفسك الطموح والآلام على هـذه الثروات النائمة في بطون الأودية وأعماق الجبال .

أمـا إذا كنت واعيـاً فيسهل عليك أن تـدرك أن طريق المسلمين إلى كل الثروات الكامنة إنما هو الثروة الكامنة في حراء وقرآن حراء .

وإذا كنت واعياً فإن نظرة إلى جبل النور الخاشع ، وإلى جبـل عرفات المتواضع ، تجعلك تدرك كثيراً من حكمة الله في اختيار هذه المنطقة لأمره ووحيه وإن اختلفت عما عرفت وما ألفت من بقاع الأرض .

* *

وأنت تصعد في جبل النور تعرج في التعاريج ، وتغيب وتظهر بين الصخور ، تستعين تارة بيدك وتارة بيـديك ، وتقف تارة لتجمع أنفـاسك ولتختار أيسر المسالك إلى حراء . . فآخر ما تفكر فيه نفسك ، فعناء الصعود شعور خجول أمام قضايا جبل النور ومشاعره .

كأني به صلى الله عليـه وآله أحس مبكراً أن حركة الحياة مع الناس تفسد على الإنسان كثيراً من وعيـه ومشاعره ، وأنه لا بـــد من عمل يحفظ مستوى الشخصية ، فأخـذ يمارس الصلاة اليومية كما هداه الله إليها . ثم أحس بالحاجة إلى صلاة سنوية تمتد أياماً وتكثر عطاء ، ولكن فناء الكعبة المليء بأصنام الناس وحركتهم وفضولهم لايصلح لمثل هذه الصلاة ، فاتجه تفكيره إلى جبال مكة ، والتمع في ذهنه ما يقال عن حراء فأخذ يتحرّى أخباره

قالوا له : إنا نسمع أن الماضين كانوا يتعبدّون فيه ، ولا أكثر .

وتفكر : أيمكن أن يكون حراء معتكفاً لتعبّد آل إبراهيم والصالحين من أولياء الله ؟

وزاد في اطمئنانه أنه لم يجد في الموضوع شائبة تصنيم ، فمن جبل حراء لم ينحت واحد من الأصنام كما نحت من جبل المأزمين وغيره ، وبجبل حراء لم تتصل قصة ٌ لصنمٍ أو كاهنٍ أو قبيلة . وذهب يستطلع حراء فازداد اطمئناناً ورضاً، ثم عاد إلى منزله :

– يا أم القاسم إني أحببت أن أتعبّد لله في حراء أياماً ؛ فهيئي لي زاداً وماءً وحصيراً .

كأني به روحي فـداه يسلك تعاريج هذا الجبل بخطاه الجليلة وهو يحمل الإداوة في يد وزاده المبارك في يد ويلفّ الحصير والرداء تحت إبطه .. والحصى يثبت تحت قدميه والصخور تشمّ أثوابـه ، حتى يصل إلى حراء فيمهِّد داخل الغار ، ويسوّي أمام الغار ، ، ويبدأ عبادة الأنبياء ..

★ ★

ماذا شهد جبل النور من رسول الله صلى الله عليه وآله ، وكيف كان يعدّه ربه عز وجل في معهد حراء للنهوض برسالته ..

يقول التاريخ : إن الله حبب إلى نبيّه الخلوة فكان يجـاور كل سنة بحراء أياماً ربما تصل إلى الشهر ، وكان أول ما يعود إلى مكة يبدأ بالكعبة قبل أن يدخل إلى منزله . ولا يزيد التاريخ على هذا .

كانت الأمـة مبهورةً بقضايا الإسلام الكبيرة ، ومأخوذة بالأحـداث المتلاحقة ، فلعلّ لهـا عذراً إن هي لم تسأل الرسول عن مكوّنات شخصيته بتفصيل . لكن ما عذر الرواة الذين لم يستفيدوا من خاصةِ أصحاب الرسول عن حياته قبل البعثة وعن البعثة .

بلى ، اهتم الرواة بالبعثة وببدء الوحي اهتماماً مقتضباً وروو ا فيه روايات !

وإني كلما تأمّلت رواية بـدء الوحي كما تنقلها كتب السيرة و كتب الحديث السائدة لم أستطع أن أقبلها .. لا عليك من الأسانيد التي تتفرع كلها عن راوٍ أو اثنين ، بل انظر إلى (صيغة) بدء الوحي وما فيها من غرابة ومفارقات .

يقول ابن إسحاق الذي أجـــاز لنفسه أن يأخذ كتاب السيرة لابن هشام ويخرجه إلينا مصاغاً بقلمه :

« خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى حـراء كما كان يخرج لجـــواره ومعه أهله ، حتى إذا كانت الليلة التي أكرمه الله فيها برسالته ورحم العباد بها ، جاءه جبريل عليه السلام بأمر الله تعالى ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فجاءني جبريل ، وأنا نائم ، بنمطٍ من ديباج فيه كتاب ، فقال : إقرأ . قلت : ما أقرأ؟ قال : فغتّني حتى ظننت أنه الموت ثم أرسلني فقال : إقرأ . قلت : ما أقرأ ؟! قال : فغتّني حتى ظننت أنه الموت ثم أرسلني فقال : إقرأ . قلت: ما أقرأ ؟!! قال : فغتّني حتى ظننت أنه الموت ثم أرسلني فقال : إقرأ . قلت: ما أقرأ ؟!!

ما أقول ذلك إلا افتداء منه أن يعود لي بمثـل ما صنع بي .. فقال « إقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ... » قـــال فقرأتها ثم انتهى فانصرف عني ، وهببت من نومي فكأنما كتبت في قلبي كتاباً ، فخرجت حتى إذا كنت في وسط من الجبل سمعت صوتاً في صورة رجل صافٍّ قدميه في أفق السماء يقول : يا محمد ، أنت رسول الله وأنا جبريل ، فوقفت أنظر اليه فما أتقدم وما أتأخر ، فجعلت أصرف وجهي عنه في آفاق السماء فلا أنظر في ناحية منها إلا رأيته كذلك ، فما زلت واقفاً ما أتقدم أمامي ومـــا أرجع ورائي ، حتى بعثت خديجة رسلها في طلبي فبلغوا أعلى مكة ورجعوا اليها ، وأنا واقف في مكاني ذلك . ثم انصرف عني .

وانصرفت راجعاً الى أهلي حتى أتيت خديجـة فجلست إلى فخذها مضيفاً اليها ، فقالت : يا أبا القاسم أين كنت فوالله لقد بعثت رسلي في طلبك حتى بلغوا أعلى مكة ورجعوا إليّ . ثم حدثتها بالذي رأيت فقالت : أبشر يا ابن عم واثبت ، فوالذي نفس خديجة بيده إني لأرجو أن تكون نبيّ هـذه الأمة . ثم انطلقت إلى ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزّى بن قصيّ وهو ابن عمها (؟) وكان ورقة قد تنصر وقرأ الكتب وسمع من أهل التوراة والإنجيل ، فأخبرته بما أخبرها رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه رأى وسمع فقـال ورقة بن نوفل : قدّوس قدوس ، والذي نفس ورقة بيده لئن صدقتني يا خديجة لقـد جاءه النـاموس الأكبر الذي كان يأتي موسى ، وإنه لنبي هـذه الأمة ، فقولي له فليثبت ! »

ويضيف ابن اسحاق رواية أخرى أن خديجة قالت لرسول الله صلى الله عليه وآله « أي ابن عم ، أتستطيـع أن تخبرني بصاحبك هـذا الذي يأتيك إذا جاءك ؟ قال نعم . قالت : فإذا جاءك فأخبرني به .

فجاءه جبريل عليه السلام كما كان يصنع ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لخديجة يا خديجة هذا جبريل قد جـاءني . قالت : قم يا ابن عم فاجلس على فخذي اليسرى فقام رسول الله فجلس عليها ، قالت : هل تراه ؟ قال نعم .

قالت : فتحوّلْ فاجلس على فخذي اليمنى ، فتحول رسول الله فجلس على فخذها اليمنى ، فقالت : هل تراه ؟ قال نعم .

قالت : فتحولْ فاجلس في حجري ، فتحول رسول الله فجلس في حجرها ، قالت : هل تراه ؟ قال نعم .

قال : فتحسرت وألقت خمارها ورسول الله صلى الله عليـه وسلم جالس في حجرها ثم قالت : هل تراه ؟ قال لا .

قالت : يا ابن عم أثبت وابشر ، فوالله إن هذا لمَلك وما هو بشيطان ! »

ثم يؤكد ابن اسحاق هذه التكملة بأنه عرضها على عبد الله بن الحسن فقال إنه سمع أمه فاطمة بنت الحسين تحدث بهذا الحديث عن خديجة مع تعديل طفيف !

وها أنا على جبل النور ، أتأمل الغار وأشمّ ثراه ، وأقف في الباحة الصغيرة أمامه وأرمق السماء وقمة الجبل ، وتصطفق جوانحي للنـّور يجلل الجبل وللملاك يهبط من السماء .. وأتأمل شخصية محمـــد صلى الله عليه وآله ، ثم أتفكر في رواية ابن اسحاق فلا أستطيـــع تصديقها .

بداية الوحي على نوح عليه السلام كما ترويها بعض النصوص بدايةٌ معقولة ومنسجمة :

كان عليه السلام يضيق صـــدره من مجتمع الشومريين (أو أجدادهم) من ماديتهم وفسقهم وعكوفهم على أصنامهم فيخرج إلى الــبرية .. فجاءه ذات يوم رجل ، وسلم عليه ، وسأله عن حاله وعمله وماذا يصنع هنا ، فقال نوح : أنا إمرؤ من هؤلاء الناس هداني الله إلى معرفته فنبذت أصنامهم وقلوت أعمالهم ، وإني كلما دعوتهم إلى عبادة الله الواحد عز وجل ونبذ عبادة أصنامهم و كبرائهم ردوا عليّ كلامي وسفهوا رأيي ، فيضيق صدري فأخرج عنهـــم إلى البرية أتعبد وأتنزه ..

قال له الرجل : وهل إذا أرسلك الله إليهم ، وعلـّمك كيف تدعوهم تفعل؟

قال : نعم .

قال : فإني رسول الله اليك ، أنا جبريل ، وربك يقرؤك السلام .. فتأمـّله نوحٌ فامتلأ عقله بالإطمئنان ، وطفح قلبه بالخشوع وعيناه بالدموع ، واعتنقا .

وعلمه جبريل أمر الله ، فـكان الدرس الأول كيف يبدأ الدعوة ، ثم توالى عليه الوحي في مرحلة ما قبل الطوفان ، ألف سنة إلا خمسين عاماً .

أما رواية بدء الوحي على كبير الرسل صلى الله عليه وآله فلا هي منسجمة ولا معقولة . ودع عنك الإنسجام وأضفه إلى الأسانيد ، ولكن إذا عجبت فاعجب لقصة الغتّ وقصة الشكّ !

الغتّ التمثيلي الذي جاء به الرواة على نمط غتّ الكهان ووحيهم المزعوم .
وشك الرسول بنفسه – بعد هذا المنام المزعج واليقظة المبهمة – حتى طمأنته زوجته خديجة وعمها، أيّاً كانت خديجة في وعيها وعقلها رحمها الله وأيّاً كان ورقة بن نوفل .

إذا عجبت فاعجب لروايةٍ يقبلها المسلمون وهم يتلون قول الله عز وجل « ولقد رآه بالأفق المبين » فأي أفقٍ هذا الذي ترسمه رواية بدء الوحي غتاً ثم غتاً ثم غتاً إلى حد الموت ، من دون ذنب ولا لغاية ، وشكاً إلى حد الذعر والإحتماء بخديجة !!

بل كيف يستطيع أحد عرف شيئاً عن حكمة الله في أفعاله ، وشيئاً عن وعي رسول الله ، أن يقبل هذه القصة ؟

والحمد لله أن لم تكن رواية بدء الوحي من الأسس التي يستند اليها الإيمان بالإسلام ، وأن محاولات المستشرقين لتكذيب الإسلام استناداً إلى هذه الرواية قد باءت بالفشل أمام قوة الإسلام في قرآنه وشريعته وشخصية رسوله صلى الله عليه وآله .

* *

كأني به روحي فداه وقد أكمل تعبّده السنوي ، وحمل إداواته وحصيره، واتّجه من هذا المكان إلى مكة منحدراً بخطاه الوئيدة ، فإذا به يرى الجبل أضاء من كل جانب ، ويسمع صوتاً يناديه : السلام عليك يا محمد، فوقف والتفت إلى الصوت من أعلى الجبل راداً السلام ، فرأى السماء منفتحةً بفوّار من نور

جلـّل الجبل ، وإنساناً يحط على مقربة منه ، فعلم أن شيئاً من الله أتاه ، فخفق قلبه بالخشوع لله ، واتجه إلى الرجل فاعتنقه الرجل بالدموع وقبـّل جبينه وقال له : أنا جبريل ، رسول الله اليك ، إن الله عز وجل يقرؤك السلام ، وقد اختارك رسولاً إلى الناس تبلغهم رسالته : تتلو عليهم آياته ، وتزكيهم ، وتعلمهم قرآناً ينزله عليك ، وتعلمهم الحكمة التي يعلمك إياها ..

وقد أمرني عز وجل أن أبدأك بالوحي والتنزيل في هذا اليوم ساعة منصرفك من تعبّدك : أعلمك ، وأجيب على أسئلتك ، وأتلو عليك أول آياتٍ من كتاب ربك ، وهو خاتم الكتب واسمه « القرآن » وهو سورٌ كثيرة وآيات .. وقد جئتك بست آياتٍ من أول سورةٍ منه ، وأنا موافيك كلما أمرني عز وجل حتى تكمل واجبك ويتم نصر الله لك .

إن أول ما يأمرك به ربك أن تبدأ بقراءة كتابه على الناس وتدعوهم به إليه ، وهذه الآيات الست :

« بسم الله الرحمن الرحيم .

إقرأ باسم ربك الذي خلق .

خلق الإنسان من علق .

إقرأ وربك الأكرم .

الذي علـّم بالقلم .

علـّم الإنسان ما لم يعلم »

يا رسول الله : إن الله عز وجل ....

* *

نعم ، في هذا المكان .. عليك يا جبل النور انفتحت السماء ، وفيك تجلّى نور الله ، وعليك حطّ سيد الملائكة ، وفي منحدرك يا حراء تمّ أول لقاءٍ بين كبير الملائكة وكبير الرسل .. رآه بالأفق المبين ، بالعقل المنفتح وبالبصيرة النافذة ، وبالعناق والحنان ، لا بالغت ولا بالشك .

* *

يا جبل النور ، كيف تلقيت ينبوع النور المنهمر من السماء ، وكيف خفق قلبك لقلب الملاك الذي حط عليك ، وهل حط على قمتك ثم انحدر بخطى وئيدة أم حط على كتفك عند باحة هذا الغار . وكيف خفق قلبك في أول ليلةٍ احتضن فيها سيد الرسل ، وفي أول ساعة انفتح قلبه على وحي الله ..

كيف التقيا ، أكرم ملاك وأكرم رسول على كتفك ، وما نوع العواطف الكبيرة التي تبادلاها .

ودموع الفرحة والخشوع على أيّ تربةٍ أو صخرةٍ منك تناثرت ، هل سمحتَ للهواء والشمس أن ينالا منها ، أم احتضنتها في أعماقك إلى أن تلقى الله .

والحديث الذي دار بينهما كيف كان وقعه على قلبك وجوانحك ، هل حفظته ، هل حفظه أفقك لنا ، وهل سيكشف عنه العلم يوماً .

أين التقيا ووقفا .. ثم أين جلسا ، ربما في هذه الباحة الصغيرة أمام الغار ، ربما كانت يومذاك باحةٌ ترابية ممهدة أو صخرةٌ ملساء أو متعرجة ثم كسوتها من نثار رأسك وحاجبيك ثوباً ترابياً مباركاً .

كم طالت الجلسة بينهما ، وكيف اختصرا مئة مسألة في مسألة وعامـــاً كاملاً في ساعتين أو ساعة .. ثم كيف توادعـــا إلى لقاء فاتخذ سبيله سيد الملائكة عنك إلى ملئه الأعلى ، واتخذ سيد الرسل سبيله عنك إلى ملأ الناس ..

* *

قم يا صاحبي نشمّ أركان الغار ، وثراه ، ومـا حوله ، ونتنسّم أفقاً تعبّق بنـــور الله ، ونعفّر الجبين على ترابٍ تعفر عليه أكرم جبين ، ونفتح قلوبنا بخشوع ودعاء في مكان تفتح فيـــه أعظمُ قلب ونطقت فيه أكرم شفتين بأحر خشوعٍ ودعاء .

ساعاتٌ في جبل النور يقل نظيرها في ساعات العمر ، فنحن في هذا الجبل نشعر بالسماء وجوداً متصلاً بنـــا ، ونشرف على الأرض فنرى قضاياها وقيمها بنفاذ خالص من الشوائب، وبعمق يعلو في قيمته وطعمه على عمق الرؤية الفلسفية الهندسية .

إيهاً يا جبل النور فكيف برؤية رسول الله فيك في أفقها المبين ونفاذها إلى قلب القضايا واستشفافها للمستقبل . وكيف بمشاعره .

وبعد أن ودع سيد الملائكة هل صلّى هنـــا صلاة الرسالة ، صلاة الشكر العميق والإستعانة على أداء المهمة .

وما هي أكبر قضيةٍ كانت تملأ عقله وقلبه وهو ينحدر عنك بخطى النبوة ؟ إنها وجود الله والشعور به عز وجل .

وما هي أكبر مسؤليةٍ كانت تملأ عقله وقلبه ؟ إنهـا مسؤولية اختيار أفضل صيغةٍ متكاملة يبدأ بها الدعوة إلى الله .

وكيف دخل المسجد الحرام ووضع متاعه جانباً، وطاف بالكعبة وصلى وناجى ملياً بقلبه وشفتيه ودموعه : يخشع ثم يشكر ثم يخشع ثم يشكر ثم يستعين .

وكيف دخل على خيرة زوجات الأنبياء وفي قلبه نورُ الرسالة، وعلى محيّاهُ إشراقتها، وبادرها بالبشرى فبادرته بالتهنئة وهرعت ساجدةً لله شاكرة . لقد كانا يتوقعان شيئاً من الله لكثرة ما رأوه من عطاءات الله، وكانت خديجة تؤكد على توقع أمر من الله مطمئنة القلب . وكيف جاء عليٌّ فبشراه فشاركهما الشكر والفرحة، وصار لدعوة الإسلام ثلاثة : رسول الله ومؤمنان . وكم طالت الأيام حتى انضم إليهم رابع المؤمنين .

* *

ها هنا يا صاحبي نستطيع أن نفهم سورة العلق في متنزلها وساحتها على متن جبل النور، فلنقرأ ..

ونقرأ البسملة، والآيات الخمس الأولى من السورة، فتصطفق الأفئدة ويكاد يهتزّ الأفق وتضطرب جوانح الجبل فقد أثرنا حنانه ليوم تنزّلها .

قف يا صاحبي عند هذه الآيات، عند أول أمرٍ إلهي فيها « إقرأ » هل تشكّ بأنه أمر من الله لرسوله أن يبدأ قراءة القرآن على البشرية .

أين من هذه البداية تفسير رواية بدء الوحي لإقرأ . وأين منها أقاويل المفسّرين !

ونعيد الآيات ونبدأ بالسابعة « كلا . إن الإنسان ليطغى . أن رآه استغنى .. » الله أكبر .. ما أكثر ما بين هذه الآيات من الزمن والأحداث .

إن تكملة السورة تصفُ العاصفة التي واجهت قراءة الرسول للقرآن على الناس ودعوته إياهم إلى الله ، تصف وقوف المترفين في وجه الإسلام ، وتندّد بهم وتحذرهم من الله ..

لعلّ بين الآيات الأولى وتكملة السورة شهوراً ، ولعل بينهما سوراً كاملة تنزّلت ، ولعل منها سورة الفاتحة والقلم !

لقد بقيت سورة العلق مفتوحةً حتى جاء الوقت المناسب لتكملتها بوصف موقف العلق الطاغي ، المعادي لهدى الله، الذي يهدد داعيَ الله بناديه وأتباعه.

سبحانك اللهم، يا مهندس القرآن صرحاً يتم في أحداث ثلاثٍ وعشرين سنة. تنتظر كل لبنة موقعها حتى يحين وينتظرها موقعها حتى تجيء .. حتى تمّ كتابك لنا متقناً جميلاً كمواقع النجوم .

* *

ونحن في ساحة جبل النور ، نقف على الرملة ننظر إلى الجبل ونعجب كيف صعدنا ونزلنا دون عناءٍ يذكر ، وصاحبي يلتقط الصور للجبل من هنا وهناك، وأنا أتفكّر :

تُرى هل تتيح لي الأيام أن أمضي من كل أعوامٍ يوماً في حراء النور ؟

تُرى إذا سكنت في مكة وتعبّدت كل سنة في حراء ، هل يفقد قلبي تفاعله ويقسو كما تقسو بعض القلوب التي تسكن في المشاهد المقدسة ؟

تُرى ما هو شعور أولئك أصحاب البيوت الشعبية القريبة من جبل النور ؟

تُرى كيف يجرأ الناس أن يمتلكوا ساحة جبل النور وبعض سفوحه، لقد خططوها بالكلس الأبيض وحدد كل واحدٍ ملكيته .

يا جبل النور أنت لا تُملك .

تُرى لو نُظِّمت ساحة جبل النور التي تتسع لنصف مليون إنسان واحتفل المسلمون في ذكرى المبعث ، وانتظمت صفوف الإحتفال في ساحة الجبل وفي أول السفح ، وأُضيء حراء بأضواءٍ كاشفة ، وتُتلي منه القرآن .. فقط سورة « إقرأ » ومن قراءة المنشاوي (رحمه الله) يصبها من أعلى جبل النور على العالم .. ونُقل هذا الإحتفال السنوي بالبث التلفزيوني والإذاعي المباشر .. فأيُّ عطاءٍ نفيده لأمة الإسلام .

من يدري ماذا يريد الله لهذا الدين . فربما تحققت هذه الأمنية في عصرنا .

الى جبل الهجرة :

جوّ الهجرة يختلف يا صاحبي عن جو البعثة . ولكي نعيش الهجرة لا بد لنا أن نستبدل الهدوء والسلام الذي عشناه في رحلة جبل النور بالخوف والجهد والترقّب الذي ساد الهجرة .

تصور أننا مع رسول الله صلى الله عليه وآله ، وقد عايشنا الصراع المتنوع مع فراعنة مكة ومردتها ثلاثة عشر عاماً ، إيذاءً لرسول الله ولنا ، وافتراءً عليه وعلينا ، وتعذيباً وإهانةً وتشريداً ، وتأليباً للناس واستعمالاً لكل وسائلهم ضدنا . ونحن نتلقى ذلك بالصبر والتحمّل ، حتى تفاقم الأمر بعد وفاة أبي طالب فضيّق المشركون على المؤمنين وأخذوا يفكرون في التخلص من قائد الدعوة صلى الله عليه وآله ، ثم استحكم حقدهم الأسود فقرروا قتله :

عقدوا مجمعاً سرياً في دار الندوة وتداولوا الرأي في أمر الإسلام ، وما لبث أن سقط رأي العاص بن وائل وأمية بن خلف بأن يسجنوا محمداً ويوثقوه بالحديد حتى يأتيه الموت ، فقد تحسبوا للضّغط المعنوي الذي قد يمارسه أصدقاء بني هاشم من مكة ومن العرب خاصة في الأشهر الحرم .

ثم سقط رأي أبي سفيان وعتبة بأن يركبوا محمداً على بعيرٍ صعب ويوثقوه عليه ثم يقصعوا البعير بسنان الرماح فينطلق البعير في الأودية والشعاب كالمجنون

من جراحه فيقطع محمداً إرْباً إرباً ! فقد خافوا أن يخلص به البعير سالماً إلى بعض الأفاريق فيأخذ محمد بقلوب الناس بسحره ويجمعهم على الإسلام ، ثم يسير إلى مكة بالكتائب .

وسقطت آراء أخرى مشابهة ..

وانتصر رأي أبي الحكم - أبي جهل - لأنه كان رأياً مضمون النتيجة مأمون العاقبة !

قال أبو جهل : إني أرى لكم رأياً سديداً وهو أن تعمدوا إلى قبائلكم العشر فتنتدبوا من كل قبيلةٍ رجلاً نجداً ثم تسلّحوه حساماً عضباً حتى إذا غسق الليل أتوا محمداً فقتلوه ، فيذهب دمه في قبائل قريش فلا يستطيع بنو هاشم وبنو المطلب مناهضة قريش فيرضون بالدية .

فقالوا : أصبت يا أبا الحكم هذا هو الرأي . وأمروا بعضهم أن يكمّوا أفواههم على ما مكروا إلا عن الذين ينتدبونهم لقتل محمد إن كانوا من غير الحاضرين .. !

كيف كان الموقف في مكة : المؤمنون كلهم تقريباً مشرّدون ما بين أثيوبيا ويثرب ، فقد أمر الرسول بعضهم ورخص لبعضهم الآخر بالهجرة وبقي هو ينتظر أمر الله .. والوقت بعد العشاء من ليلة ظلماء من أوائل شهر ربيع الأول وقد أطاف بدار رسول الله بضعة عشر نفراً يرصدون سكون الناس ومبيت الرسول صلى الله عليه وآله ، عشرةٌ منهم مسلّحون وآخرون يساعدونهم في الرصد وفي الرأي ، ومنهم :

أبو جهل

أبو لهب

خالد بن الوليد بن المغيرة

عقبة بن معيط

الحكم بن أبي العاص

أمية بن خلف

ابن العيطلة

زمعة بن الأسود

النضر بن الحارث

طعيمة بن عدي

أُبيّ بن خلف

نبيه بن الحجاج

منبه بن الحجاج

وأطلع الله رسوله على قرار مؤتمر الندوة ، وأمره أن يُبيت علياً في فراشه ليشغلهم بالإنتظار حتى يهزع الليل وأن ينسحب من بينهم متلطفاً تالياً مطلع سورة ياسين .

تصور أنك معه صلى الله عليه وآله وقد انسحبتم من مكة تغذّون في المسير وتنتظرون أن يهجم المسلحون العشرة على الدار فيكتشفون أن النائم في الفراش ليس الرسول ، لا تدرون هل تحدث معركة في الدار أو لا تحدث ، ولا تدرون متى تفجؤكم الخيل عاديةً في طلب الرسول المهاجر ..

أو أنك كنت في مكة فأفقت على ضجةٍ ولغط ، وما هالك إلا وقع حوافر خيلٍ تنطلق من كل ناحية ، ومجموعة فرسان يركبون على عجَل ،

وأبو سفيان يقول لهم : أُطلبوه من كل صوب . أدركوه . فقد خرج الليلة وإنه لم يبرح شعاب مكة .. ثم لا تستطيع أن تنام ولا أن تهدأ ، تريد أن تعرف هل أدركوا رسول الله فقتلوه أم جاؤوا به أسيراً ، أم أنجاه الله ..؟

كانت حساباتهم ترجح اتجاهه إلى المدينة فكثفوا خيلهم باتجاه الشمال الشرقي من مكة حيث الطريق إلى المدينة . أو اتجاهه إلى الحبشة فكثفوا خيلهم باتجاه الجنوب الشرقي حيث الطريق إلى جدة ، ميناء الحبشة .

وعرف الرسول حساباتهم ، وأنه إذا سلك أيّ طريق إلى المدينة أو جـدة فهم مدركوه ، فاتجه إلى الجنوب الشرقي إلى جبل صعب المسلك فيه غـار ضيِّق غير مشهور لـكي يستكنّ به أياماً حتى ييأس المشركون أو يهدأ طلبهم له .

الجبل يسمى أطحل ، والغار بإسم ثور بن عبد مناة بن أدد فقد ولد ثور هذا عند الغار أو عند الجبل فسمي الغـار وربما سمي الجبل باسمه غار ثور ، وأهل مكة يقولون : جبـل تور وغار تور بالتاء ، ولكني يا صاحبي لا أرى له إسماً أنسب من : جبل الهجرة وغار الهجرة ، فليت الحكومة تتبنى هذا الإسم الموضوعي .

لنشدد همتنا يا أخي فالوقت مبكر يكفينا لأن ننزل من الجبل قبل الظهيرة فلا تلفحنا الشمس كما لفحتنا في يوم مضى ، ولعل صاحبنا – صاحب السيارة – يوصلنا بخبرته إلى سفح الجبل فنوفر نشاطنا للصعود ..

وما أن خرجنا من أسفل مكة وتركنا بضعة جبال حتى أشار صاحبنا إلى جبل قريب ، قال : يا حاج ، ترون هذا الجبل ، إن جبل تور هو الذي وراءه ، ذاك الجبل الذي تبدو قمته .

وانحدر بسيارته عن الشارع المرصوف متجهاً إلى الجبل الآخر أخ جبل الهجرة ، وما هو إلا أن وقفت السيارة لا تَرِيم . ونزل السائق ونزلنا : لقد غرقت العجلات حتى التصق جؤجؤ السيارة بالرمال الدمثة . وحاولنا عبثاً دفع السيارة ، وحاول عبثاً أن يفرغ الرمال المنهالة من أمام العجلات ، ثم حاول عبثاً أن يشغّل محرك السيارة .

وتحيَّر المسكين الطيب وأخذ يلقي باللوم على السيارات الشاحنة التي ضيعت الطريق الأساسي بكثرة آثار عجلاتها ، فطمأناه وقلنا له : إذهب إلى مكة وائت بساحبة تجر السيارة وإذا انتهيت قبل أن نعود من زيارة الجبل فانتظرنا على أرضٍ صلبة .

واتجه صاحبنا إلى مكة بعد أن أعطانا تعليماته بأن نصعد الجبل الأول ثم نعبر منه إلى جبل الهجرة لأن قمته متصلة به ، ثم نتجه في صعودنا إلى الشمال الشرقي حيث يقع غار الهجرة .

واتجهنا مشياً على الرمل الذاري نحمل الماء حتى وصلنا إلى سفح الجبل الأول فجلسنا نستريح ونتفكر : كأنه عز وجل يريد أن يفهمنا بهذا التعب مشقة الهجرة البدنية التي كابدها الرسول صلى الله عليه وآله ، مضافةً إلى المشقة النفسية لإنسان يبحث عنه قاتلوه حتى يصل بهم قاصّ الأثر إلى باب الغار أو قريباً منه ، ثم يخفى عليه الأثر ويتيه .

روحي لك الفدا يا رسول الله ، ما أكثر ما عانيت .

وبدأنا نصعد الجبل ، وبدأنا نحس بالتعب .

الجبل أوعرُ من جبل النور ، لكن ما ندري أهي المشقة أضعفت هممنا ، أم أن الجهة التي جئنا منها لا تصلح للصعود .

قطعنا ثلثي الجبـل ببسم الله ويا ألله ، ثم قطعنا شوطاً صعباً بكادَ ولعل .. ثم وصلنا إلى صخورٍ ملساء منحدرة لم نأمن أن ننزلق منها !

قلت لصاحبي وقد أضره التعب أكثر مما أضر بي : انتظر ها هنا حتى أصعد من ذاك الجانب إلى ما فوق هذه الصخور وأنظر هل يتصل هـــذا الجبل بجبل الهجرة أو هل نجد مسلكاً أفضل من مسلكنا . وجلس صاحبي ، وصعدت بعد لأْيٍ شوطـــاً صعباً فنظرت إلى أسفل فعجبت كيف استطعنا أن نصعد ، ونظرت إلى أعلى وإلى الجانبين فـلا عرفت أن الجبل متصلٌ بأخيه ولا رأيت مسلكاً خيراً من مسلكنا ، فعدت إلى صاحبي وقد جمع أنفاسه وجفف عرقه ، وأخذت أجمع أنفاسي والعرق يتصابّ ولا يهدأ .

أخذنا نتحدث تارةً بما نفعل ، وتارةً بالهجرة ومشقتها ، وتارةً بما يكون صاحبنا قد فعل بالسيارة .

وقررنا العودة ، فالوقت قرابة الظهيرة وقـــد بقي علينا النزول . وعلّلنا أنفسنا بأن الأعمال بالنيات ، وعسى أن يكون ربنا كتب لنا أجراً ، وعسى أن يكون فيما حدث لنا خير .

* *

نعم لقد كان خيراً ، فقد اكتشفت في نفسي مساحةً جديدة بـــين الوعي النظري والتطبيق العملي . وأصبحت أقدّر بإجلالٍ أكبر قصر المساحة بـــين الوعي النظري وبين التطبيق العملي لدى الرسول صلى الله عليه وآله .

هذه المسألة غير المنتظرة أصبحت أكثر المسائل إلحاحاً على ذهني منذ عجزنا عن مواصلة الرحلة عجزاً وددنا في بعض لحظاته أنا لم نصعد إلى ابن جبل الهجرة ولم نتجشم هذه الزيارة .

وفي حمّام فندق مكة الحديث كنت أعصر ثيابي من العرق وأصبّ الماء البارد على بدني ثم ألبس ثيابي الجافة والتفكير في ضعف الإنسان وبُعد المسافة بين وعيه وتطبيقه هو التفكير المستحكم في رأسي .

الوعي النظري ليس مسألةً صعبة ، فما أيسره . بل ما أحلى الوعي النظري وأشهاه ، إنه لا يحتاج إلى أكثر من : رغبة ، وقابلية ذهنية .

وصعوبة المنهج الإسلامي ليست في وعيه ، إنما في تطبيقه ، بل وفي بعض التطبيق .

فكثيراً ما يكون التطبيق منسجماً مع النزعة الطبيعية أو مع النزعة التربوية لأحدنا .. فما أيسر أن يكلفنا الله عز وجل بالإعتزاز بإيماننا وبالتكبّر على أعدائه وأعدائنا . وما أيسر أن يطبق أحدنا الإعتداء بالمثل على من اعتدى عليه ، وما أيسر أن يطبق أحدنا الإغتذاء والنوم اللذين يوجبهما الله عليه .

ولكن التطبيق يكون صعباً حينما يعترض مع رغباتنا الطبيعية والتربوية ، حينما يصطدم مع ضعفنا ويطلب الله منا معاناة هذا الضعف والإنتصار عليه .

وقد كنت أظن أن هناك فرقاً أساسياً بين صعوبات التطبيق الجسدية والصعوبات النفسية ، ولكن مَجْهدة الصعود إلى جبل الهجرة مع بعض المجاهد البدنية السابقة جعلتني أعتقد أنها صعوبة واحدة ، فمتاعب الجسد في جوهرها متاعب نفسية ، ومن ثم فالمعاناة أولاً وأخيراً مع النفس .

* *

« وخلق الإنسان ضعيفاً » هذا أول ما يجب أن نستوعبه من هذه المسألة ، فالضعف في الإنسان هو القاعدة ، والقوة هي الإستثناء ، الإستثناء الذي يريدنا

الله أن ننميه حتى يكون هــو القاعدة أو على الأقل حتى تغلب حسناتنا سيئاتنا فنحصل على إحدى وخمسين درجة في مقابل تسع وأربعين سيئة .

هذه الحقيقة عن الانسان يقدمها الله لنـــا في قرآنه بديهة ، ثم لا ينساها عز وجل أبداً وهو يشدّ بأيدينا من حفر الطريق وعثراته .

ومن هذه الحقيقة نستطيــع أن نعرف لماذا يحب الله الناس ، ونستطيــع أن نتعلم حبّ الناس ، كل الناس ، ونعالجهم كضعفاء ومرضى مهما كان نوع العلاج الذي يأمرنا به الله .

وبهذه الحقيقة يستطيع أحدنا أن يفهم جيــداً أنه طفل في مدرسة ، يجوز عليه ما يجوز على الأطفال ، ويجب له ما يجب لهم حتى يبلغوا ، وحتى بعـــد بلوغنا الرشد في الحيــاة فإنما ننتقل من معهد إلى معهد ومن مرحلة إلى مرحلة . والحياة مليئة بالدروس الجديدة .

* *

وهذه البديهة ما أكثر ما نظلمها ، وما أكثر البدائه المظلومة بين أيدينا لأنها تتصل بذواتنا :

بعض الناس يظلمون هذه البديهة بجهلهم إياها ، فيصابون بردة فعـــل يائسة حينما يكتشفون في أنفسهم مساحة بين النظرية والتطبيق ، مع أنهم إنما اكتشفوا طبيعتهم الإنسانية التي خلقوا عليها ، اكتشفوا ضعفهم البشري الذي أراده الله أن يكتمل بالمعاناة .

كأنهم يريدون لأنفسهم، أو لغيرهم ، أن يكونوا ملائكة ولا يكونوا بشراً. إنهم لا يعرفون أن الكمال الذي تعطيه معاناة الخطأ والصواب والذنب والتوبة

يفوق كال الملائكة ، وأنه هو الكمال الذي فتح الله له مدرسة حياتنا ، حتى ورد في الحديث الشريف « لو لم تذنبوا فتستغفروا ، لخلق الله خلقاً يذنبون فيستغفرون فيغفر لهم » .

أن يكتشف أحدنا ضعفه ، وفي أي مرحلة من عمره، ليس عيباً . إنما العيب أن لا يستغفر من ذنبه وأن لا يتعلم من المرة الأولى أو الثالثة أو العشرين . وأن يتألم الإنسان لذنبه ليس عيباً أيضاً ، لكن أن يحوّل تألمه إلى يأسٍ من الإنتصار فهو العيب والذنب، وأن يحوّل تألمه إلى استغفار وتصميم على التكامل.. فهو ما يريده الله عز وجل .

في مجلس ضم بعض طلبة العلوم الدينية في النجف الأشرف وقعت مشادّة بين طالبين ، وكانا من ذوي الوعي الإسلامي ، فعلّق أحد الحاضرين ساخراً : هؤلاء قادة الأمة !

وسكتنا نحن المستمعين على ألم ، واستمرت المهاترة واحتدم النقاش وتدخل بعض الحاضرين بكلمات ، فتحوّلت المهاترة إلى عتاب ، ثم إلى اعتذار ، ثم إلى تسامح واستغفار ، في صفاء كادت تعبّر عنه الدموع .. فالتفت أحد الحاضرين إلى الساخر قائلاً : نعم هؤلاء هم قادة الأمة .

وكان لهذه اللفتة وقعها الفكري والتربوي .

* *

وبعض الناس يظلم بديهة الضعف البشري فينفيها عن نفسه ولا يعترف بشيء من ضعفه !

سمعت أحد هؤلاء يقول : ما أذنبت في حياتي قط . وكان عمره إذ ذاك يقارب الستين عاماً ، فسألته :

تقصدون أنكم لم ترتكبوا معصية صغيرة ولا كبيرة في كل حياتكم ؟

قال : نعم ، منذ بلغت سن التكليف الشرعي – ١٥ عاماً على الأكثر – ما فعلت محرّماً أبداً ولا تركت واجباً أبداً ، ثم أفاض في مديح نفسه حتى أبعد عنها كل ضعف بشري طبيعي ، وكان بعض مديحه لنفسه مقارناً بضعف الآخرين !

والبعض الآخر يعترف ببديهة الضعف في غيره وفي نفسه ، ولكنّ اعترافه بضعفه لا يتجاوز الإعتراف النظري ، فكل أفعاله مبرّرة وكلها صحيحة !

إذاً أين ضعفك البشري يا أخي !؟

وبعض آخر يعترف ببديهة الضعف في جوانب من نفسه ويلجأ إلى التبرير في جانب أو جوانب ، أو في حالات وحالات ..

وهكذا يتفاوت موقفنا من بديهة الضعف البشري إفراطاً وتفريطاً واعتدالاً ، حسب قوّتنا وضعفنا .

* *

ولم تخلُ نظرة الناس إلى الأنبياء والأئمة عليهم السلام من ظلامةٍ لبديهة الضعف البشري هذه .

فبعض الناس يرسمون في أذهانهم صورة مثالية لشخصية الرسول صلى الله عليه وآله حتى ليجرّدوه بالنتيجة من صفة البشرية . هؤلاء ، لو عاصروا الرسول صلى الله عليه وآله ما أراهم إلا يقولون : ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ويفرح ويبكي ولا يعلم الغيب ، فكيف يكون رسول الله !

وبعضهم لا يرون أن الرسول يفرق عن أحـــدهم إلا بالوحي الذي يأتيه من الله ، فهم لا يقدّرون مدى المعاناة الفكرية والنفسية التي مارسها صلى الله عليه وآله ، ولا مدى المستوى العقلي والشعوري والسلوكي الذي بلغه حـتى استحق الوحي، ولا مدى التسديد والعصمة الإلهية التي توّج الله بها معاناته فحمله رسالته وجعله الحجة على خلقه .

أصلُ المشكلة في اعتقادي أن هـؤلاء وهؤلاء – وهم الكثرة من المسلمين – لم يأخذوا تصورهم لشخصية الرسول صلى الله عليه وآله من القرآن . إمـا لأنهم اعتمدوا في ذلك على الوراثة والبيئة وبعض الروايات واتخذوا القرآن مهجوراً ! وإمـــا لأنهم يقرؤون آيات القرآن التي تتحدث عن شخصية الرسول ولكن بنظرتهم المسبقة إلى الرسول ، فهم يحمّلون الصورة الشعبية والكلامية لآيـات القرآن ، ولا يتركونها ترسم لهم لوحـــة شخصية الرسول الكاملة ، صلى الله عليه وآله .

ينشأ أحـــدنا وصورة الرسول وأعماله محاطةٌ في ذهنـــه بكمية كبيرة من الخوارق والمعاجز حتى ليتخيل أن حياته صلى الله عليه وآله لا تشبه الحيـــاة الطبيعية في شيء .

أمـــا إذا أُصيب بردة فعلٍ من الصورة الخاطئة أو بضعفٍ في الإيمان فربما يقسو في تصوّره لشخص رسول الله صلى الله عليه وآله ويكون كالذين ينادون الرسول من وراء الحجرات .

وجدير بنا أن نمتحن صدق نظرتنا إلى الرسول صلى الله عليه وآله بحـادثة الهجـــرة :

كان باستطاعة الله عزوجل أن ينقل رسوله إلى المدينة أو إلى أيّ مكان

يشاء في لحظات ، ولكنه أراد أن يُتم أمر الهجرة وأن ينصر رسوله بالأسباب الطبيعية كعادته عز وجل في أغلب حالات رسله وأوليائه .

أمر رسوله أن يتصرّف ، ثم إذا احتاج إلى تسديد فهو أقرب إليه من حبل الوريد ، وإذا احتاج إلى وحيٍ فجبريل جاهز على الفور ، وإذا احتاج إلى مساعدةٍ فلله جنود السماوات والأرض .

وأخذ الرسول يتصرف : رتّب علياً في فراشه ، وانسحب من حصار الغادرين بلطف ، وصحب معه أبا بكر ، واستقر في غار الهجرة ، لا يعرف بأمره إلا علي – الذي لا يستطيع مغادرة مكة مخافة أن يثير الشك – وأسماء بنت أبي بكر وعامر بن فهيرة يجلبان لهما الماء والزاد ويبلغانها أخبار المشركين، وإلا عبد الله بن أرقط وكان الرسول استأمنه مع أنه مشرك واستأجره دليلاً ليسلك به طريقاً جانبياً إلى المدينة وأبقى عنده زاحلته التي ابتاعها من أبي بكر وراحلة أبي بكر يرعاهما وينتظر الأمر من الرسول ليأتي بالرواحل فيهاجروا .

وصلت خيول المشركين إلى سفح جبل الهجرة وقاموا بتمشيط الوادي والجبل حتى سمع الرسول وأبو بكر خطاهم على مقربةٍ من باب الغار فغلب على أبي بكرٍ الحزن فقال له الرسول صلى الله عليه وآله : لا تحزن إن الله معنا .

وفي اليوم الثالث من الإستكنان أرسل الرسول صلى الله عليه وآله عامراً بن فهيرة أو أبا واقد الليثي إلى عبد الله بن أرقط فوافاهم بالراحلتين إلى سفح الجبل وسلك بهما أسفل مكة ثم مضى بهما على الساحل حتى أجاز قديداً، ثم عبر طريق المدينة العام شرقاً وسلك بهما الخرار فثنية المرة .. حتى استبطن مدلجة مجاج .. حتى أخذ بهما على الجداجد فالأجرد فذي سلم فالعبابيد فالفاجة .. في رحلة حذرةٍ امتدت أياماً حتى تعبت راحلة الرسول في منطقة العرج فتركها واستأجر جملاً من أوس بن حجر الأسلمي ورافق الجمل غلام أوس مسعود بن هنيدة فسلك

بهم الدليل ثنية الغائر .. حتى هبط بهم بطن رئم ثم قدم بهم قباءَ من المدينة حين اشتد الضحى وكادت الشمس تعتدل .

هذه حادثة الهجرة كما يقدّمها لنا التاريخ بعد أن نجرّدها من الخوارق التي تروى معها .

وباستطاعتنا أن نقارن بين ثلاث صور تُرسم فيها الحادثة :

الصورة الاستشراقية : التي تنفي الإعجاز عن الهجرة وتنفي الرعاية الإلهية الخاصة عن الرسول ، وتفسر هجرة الرسول ونجاته بمجرد الصدفة . وهي صورةٌ خاطئة لأنها تقوم على أساس نفي نبوّته صلى الله عليه وآله ومعاندة الأدلة التي تثبتها .

والصورة الشعبيسة : التي تحيط كل تصرفٍ من حادثة الهجرة بالإعجاز والخوارق ، وترى من المؤلم ومن الإنتقاص لشخص الرسول أن نناقش في رواية حثوه التراب على رؤوس المشركين حينما انسحب من داره وهم يرصدونه حتى لم يبق منهم رجل إلا وقد وقع على رأسه التراب ، ولم يشعروا بذلك حتى أتاهم آت فأخبرهم بمغادرة الرسول ونبههم إلى التراب على رؤوسهم ، كما يقول ابن إسحاق . وترى من الإنتقاص أو من ضعف الإيمان أن نناقش في رواية نسج العنكبوت وتعشيش الحمامة ومبيضها على باب الغار ، أو نناقش في رواية سُراقة بن جعشم ولحاقه برسول الله صلى الله عليه وآله يريد قتله حتى غارت قوائم فرسه عدة مرات .. إلى آخر الروايات .

والصورة القرآنية : التي تقول :

« وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يُخرجوك .. ويمكرون ويمكر الله ، والله خير الماكرين »[1] .

« إن لا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار ، إذ يقول لصاحبه : لا تحزن إن الله معنا .. فأنزل الله سكينته عليه ، وأيده بجنود لم تروها .. وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمة الله هي العليا . والله عزيز حكيم »[2] .

هذه الصورة القرآنية تختلف عن الصورة الإستشراقية بأنها تكشف عن المخطط الإلهي وراء حادثة الهجرة في مقابل مخطط الكافرين ، وتكشف عن عنصرين غير عاديين من صنع الله في حادثة الهجرة : أحدهما : الطمأنينة التي أنزلها الله على قلب رسوله . وثانيها : الجنود التي أيّده الله بها ولم يرها الناس والتي أُرجّح أن تكون ملائكة قاموا بأدوار اقتضتها الهجرة .

وتختلف عن الصورة الشعبية بأنها لوحة لحادثة الهجرة يتضح فيها الجهد البشري جنباً إلى جنب مع الرعاية الإلهية ، بينما تطغى على اللوحة الشعبية الخوارق ويضيع فيها الجهد البشري حتى يتلاشى أو يكاد .

وحينما نكون بالخيار فإننا لا نختار على اللوحة القرآنية الإلهية لوحة مستشرق جاحد أو لوحة رسام شعبي .

---

(١) سورة الأنفال : ٣٠

(٢) سورة التوبة : ٤٠

وهـذا الإتجاه إلى القرآن لا يعني بالضرورة أن نبادر إلى تكذيب الروايات التي لم ترد في القرآن ، إنما نكذبها إذا ثبت كذبها ، ونتوقف عنها ما لم يثبت صدقها ، ولا نرى في عدم صحتها انتقاصاً لمقام سيد الرسل صلى الله عليه وآله ، ولا نقصاً في روعة لوحة الهجرة ، بل لعلّ الكمال في أن تكون الهجرة خالية من بعض ما روي .

* *

كذلك أراك يا رسول الله صلى الله عليك وآلك ، كنت تتصرف بتفكيرك وأنت على وعد من الله بالنصر ، تتلقى منه المعونة وقتما تجب ، وتحل فيك روح الطمأنينة عندما تشتد الأزمة ويحين الضعف البشري .. أما أبو بكر فقد كنت طمأنته بالنجاة وعرفته وعد الله ولكن وقع الأقدام على مقربةٍ من الغار جعله ينغلب للضعف البشري فيستولي عليه الحزن فقمت بتذكيره برعاية الله لرحلة الهجرة كجزءٍ فاصلٍ من رعايته لرسالته ورسوله .

ومع كل ما رافق الهجرة من متاعب ومخاطر فإني أقدّر يا رسول الله أن المجهدة البدنية التي لاقيتها كانت أكبر من المجهدة النفسية .

لقد كنت في مستوى المجهدة النفسية وأكثر ، فقد أعددت نفسك بالمعاناة وأعدّك الله بالتربية وبالوحي والرعاية ، فكنت واثقاً راسخاً مطمئناً ، تخشع لله وتصلي وتدعوه وتفيض عيناك بدموع الشكر .

أما المجهدة البدنية ، فكأني بك تصعد جبل الهجرة وبدنك يتصاب عرقاً ويجاهد ليكون بمستوى النفس الكبيرة التي تسكن في جنبيه :

وإذا كانت النفوس كباراً تعبت في مرادها الأجسام

والقوت الذي تناوله جسدك في الأيام الثلاثة كان أقل بكثير من القوت الذي تلقته نفسك الشريفة في غار الهجرة .. وكان أقل بكثير من قوت الأيام التالية التي أمضيتها في الأودية والشعاب في هجرتك المباركة .

وكأني بك وقد نضت راحلتك وأجهدت فأردت أن تواصل المسيرة راجلا بدون راحلة لولا أنك كنت في الأيام التي مضت تريح الراحلة التعوب وتمشي راجلا حتى تقطعت نعالك أو كادت ، فهيأ الله لك الأسلمي فاستأجرت جمله .

وكأني بك روحي لك الفداء وقد طويت يوماً ونصف يوم لم يدخل جوفك إلا الماء ، تؤثر ببقية الزاد صاحبيك حتى مسَّ الجوع بدنك ، ومسَّ صاحبيك، فقلت : إعطفوا بنا على تلك الخيمة لعلنا نجد عندهم لحماً نبتاعه أو لبناً ، وخرجت إليكم أم معبد مرحبةً فسألتها :

يا أمة الله ، هل عندكم لحمٌ نبتاعه ؟

فقالت : لو كان عندنا شيء ما أعوزناكم إلى شراء . إننا يا أخ العرب مُسنتون مجدبون .

وتفكرت ، فإذا بدنك الشريف يتضوَّر جوعاً ونفسك الشريفة مشبعة بعطاء الله ريَّانة ، فقلت :

يا أم معبد ، هذه الشاة أما في ضرعها لبن ؟

قالت : هي أجهد من ذلك ، أما تراها قد خلّفها الهزال عن اللحاق بالغنم .

قلت : أتأذنين في حلبها ؟

قالت : شأنك ، إن رأيت بها حلباً فاحلبها ، فدعيت بها فمسحت على

ظهرها وعلى ضرعها باسم الله الرحمن الرحيم ، ورمقت السماء قائلاً : اللهم بارك لنا في شاتنا . فما كان إلا أن اجترّت الشاة ودرّت ، فاحتلبتها بيدك الشريفة لبناً ثجاً ملأ الإناء حتى علته الثمالة ، وأم معبد وابنها وصاحباك ينظرون متعجبين ، فأبيت أن تشرب قبلهم وسقيتهم جميعاً حتى رووا مرة بعد مرة ، ثم كنت آخرهم شرباً فتفتّحت عروق بدنك الغرثى ، وغذاه الله حتى عاد ريّاناً يطمح أن ينهض بإرادة نفسك الشريفة .

ثم انطلقت على اسم الله تبني في الناس مجتمع الإسلام ودولة الإسلام ، تحتمل العناء والصعاب ، يتغذى بدنك من نفسك أكثر مما يغتذي من القوت .

* *

روحي لك الفدا يا رسول الله : من مكة ، وأنا أتأمل ، التقطت صورة لك في هجرتك :

صورة انخفضت فيها الجبال والمسافة حتى رأيتك ممعناً في الهجرة تتقدّمك ثلاث رواحل ، فقد أبيت إلا أن يركب مسعود بن هنيده حصته من الطريق على جمل سيده الأسلمي ، وأنت تمشي خلفه في شعاب جبال المدينة بخطى ثابتة تتكفّأ في مشيتك تكفّؤاً ، وقد بدا لي منكباك وعارضاك وأنت تقول لنا في مسيرتك وفي نفسك :

يا غرباء الإسلام ، لا تستوحشوا من عواصف الكفر مهما بدت هوجاء ، وإذا شدّد عليكم الذين يريدون علوّاً في الأرض وفساداً ، فاطلبوا لدعوتكم أرضاً جديدة . لا تأسركم أمة الباطل في بقعةٍ فتخنق رسالتكم ، بل إذا أجدب عليكم مجتمع فابحثوا للإسلام عن حقلٍ جديد ومنطلقٍ جديد ، وهاجروا في

سبيل الله : ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مُراغماً كثيراً وسعة ً . ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله ، وكان الله غفوراً رحيماً .

لا تكونوا كالفلاح الغبيّ يلتصق بأرضه التي ألفهـا وإن أجدبت ومنعت خيرها أعواماً ! بل كالجيولوجي يمسح المناطق فيختار منها ما يأمل فيه الثروة ، حتى إذا انقطع أمله بحث عن بقعةٍ جديدة .

وعلى هداك يا رسول الله ، وعلى خطاك .

أُمَّتَان

الزمان : قبيل البعثة .

والمكان : مكة ، أم قرى الجزيرة ، والمدينة المتفردة بمركزها الديني والتجاري والسياسي .

ففيها البيت الذي رفع قواعده إبراهيم ، والذي تقدسه كل العرب تقديساً ممزوجاً بالوثنية .

وفيها الأصنام ، أكثر من ثلاث مئة صنم ما بين صغير وكبير ، منصوبةٍ في ساحة المسجد حول الكعبة وعلى سطحها ، ولكل صنم منها قصة وعلاقة بقبيلة أو أكثر .

وفيها الثقل التجاري ، فقوافلها في رحلتي الشتاء والصيف إلى اليمن والشام تُشكل خطاً تجارياً هاماً بين الهند والجزيرة والدول الرومانية الشرقية .

وفيها قبيلة قريش القوية بفروعها العشرة ، والتي كادت تستقطب زعامة القبائل العربية الواسعة ، بحكم مركزها الديني والتجاري ، وبحسن ضيافتها ،

ونزعتها القيادية . وليس في مكة مع قريش إلا أحلافهم من الأحابيش — الأفارقة .

كل ذلك في مدينة صغيرة تقع في وادٍ ضيّق تنتشر مبانيها على بعض الروابي المحيطة بجانبي الوادي الشرقي والغربي ، وتتجمع ما بين الحجون في أعلى الشمال من الوادي (العالية) إلى الصفا ، وهي ربوةٌ صغيرة قرابة المسجد ، ثم تمتد المباني متفرقة إلى أسفل الجنوب (السافلة) .

وعلى ساحة المسجد تُطل نوادي مكة المشهورة ، وهي بضعة نوادٍ لكبار الزعماء والتجار أو لقبيلة معينة ، وأعرقها جميعاً دار الندوة التي بناها قُصيّ (أحد أجداد قريش الملقب بجمّع قريش) وكانت قريش لا تبرم أمراً إلا بها ، واحتفظت دار الندوة بمكانتها وإن لم تعد أعمر النوادي .

وتتألف النادي من غرفة كبيرة وفناء ، وربما اتصلت بدار السيد أو اتصلت بملحقاتها من غرفة الطعام وغرفة الخدم .

كل شيء في مكة على ما يرام . الظلام يعسعس بهدوء ، وصيادون من هذا الجانب عادوا بصيد سمين ، وآخر عاد بأرنبين ، وآخر عاد بخفيْ حنين . وأعرابٌ وصلوا لتوّهم ليراجعوا بعض الزعماء في حاجاتهم ، وآخرون جاؤوا لزيارة البيت والأصنام ، وآخرون يحطّون عن رواحلهم وأُتنهم ما جادت به الماشية والأرض ، جاؤوا يبيعونه في مكة .

والنوادي عامرة بشيوخها ، يتصدّر واحدهم ناديه محاطاً بالوسائد والخدم من العنصر العربي والإفريقي والرومي ، ويجلس إلى جانبيه التجار والفرسان ، ثم أنصاف التجار وأنصاف الفرسان .. ثم السوقة والفقراء ، حتى إذا اكتظ النادي امتدّوا إلى فنائه .. والقمر ألقى أشعته الخافتة فامتزجت بأضواء فوانيس

النوادي وانعكست ، حتى ليتميز المارّون في المسجد وتتميز بعض ملامح الأصنام البلهاء .

النوادي عامرة بحركتها المعتادة : أحاديث تجارية عن موعد رحلة القوافل وبضاعة بني فلان، وأرباح فلان وفلانة، وخصومات يقضي بها شيخ النادي بأمر حاسم ، وأحاديث عن الصيد بعضها مثير : بضع أحمر وحشٍ رآها فلان مقبلة من وادي فاطمة فكمن لها في جبل بني مُرة وحينما بلغت الشعب اعترضها وطاردها حتى بلغ بها ثنية الرئلان فأصاب منها اثنتين . ومناظراتٌ بين شخصين من قبيلتين أو من قبيلة واحدة ، وأبياتٌ جديدة لشاعر بني مخزوم قالها في منقبة لفارس منهم . وأعرابيٌّ صاحب فكاهة يأذن له شيخ النادي بالكلام فيختلط النادي ضحكاً له وعليه . وبين هذا وذاك يرتفع صوت شيخ النادي للعبيد :

يا غلام : هات الماء .

هات كأساً من زبيب الطائف لفلان .

يا غلام : إحمل إلى الدار عُكة السمن والسقاءين .

يا غلام : إذهب إلى الوليد بن عقبة وأنعمه عني مساءً وقل له : إنه يطلب إليك أن تحتبس بني ذؤيب ولا تشتري أدمهم فلقد عدوا على ماشية من مواشينا .

وفي هذه الرابية وتلك من روابي مكة تشع بعض الفوانيس ويرتفع اللغط أحياناً حتى ليسمعه من في المسجد. إنها حانات الخمر والبغاء يملكها بعض الروم واليهود والعرب ، ويقصدها الأثرياء من أبناء التجار ومن يصطحبون معهم من السوقة ، ومن تيسر له ثمن ليلة ساهرة وأجر بغية سكرى .. يجلسون فيها على الجانبين

ويطلبون ما لذّ لهم من خمر بيسان أو الطائف أو اليمن، والحانوتي يغرف لهم من الدنان كلٌّ على طلبته بعد أن يأخذ منه الثمن سلفاً .. ويسكرون ، ويتحدث أحدهم عن جارية آل فلان فيقهقهون ، وعن جواري حانة الخيبري فيقهقهون ، ويصيح أحدهم بالحانوتي : باللات والعزى أن تبغيني الليلة روميةً حسناء فيقول الحانوتي : كما تأمر يا سيدي ، ويأخذ بيده إلى مضاجع البغيّات في حجرة داخل الحانوت .

* *

ما أكثر ما استقبلت مكة لياليها بمثل هذه الحركة الرتيبة المعتادة، ولم يكن يدور في خلَد أهلها ذات ليلة أو ذات يوم أن قانون الله يعمل في مجتمعهم وأنهم عمّا قريب سيتميزون أمتين ويحتدم بينهما صراع مرير ، ثم يكبر ويمتد حتى يكون صراعاً بين الحق والباطل في العالم كله .

لقد تعوّد أهل القرى والمدن على رتابة ما هم فيه حتى لكأنه ثابتٌ لا يتغير .

ثراء غير مشروع ، وفقر مشروع .

أمجاد موروثة ، وصعلكة مزمنة .

شهامةٌ تبلغ بصاحبها أن يضحي بنفسه في سبيل غيره ، وحقارةٌ تبلغ بصاحبها أن يضحي بالناس في سبيل رغباته .

إنصافٌ وظلم ، واستقامة وانحراف ، وخنوع وكرامة ، وشجاعة وجبن ، وعفة وخساسة ، وعقلانية وأهواء ... وخليطٌ من الخير القليل والشر الكثير ،

خليط يدوم طويلاً فيألفه الناس على أنه موجود دائم دون أن يعرفوا أن الخير يتفاعل وينمو وأن الشر يتفاعل وينمو وأن نموهما إذا بلغ درجة معينة فلا بد في المجتمع من الإنقسام ولا بد فيه من الصراع .

إني متأكد من أن المجتمع الواحد والمجتمع العالمي ككل يخضع لقاعدة الإنقسامات ، انقسامات هي أعم وأعمق من الإنقسامات الطبقية في الفهم الماركسي ، وصراعها أعم وأعمق من صراع الطبقات في الفهم الماركسي ، وأن هذا الإنقسام والصراع ناتج عن قانون إجتماعي لا يقف عند السطح الإقتصادي فحسب بل يتصل بالعمق النفسي لشخصية الإنسان ، بكمية الخير التي تنمو وتتراكم وبكمية الشر التي تنمو وتتراكم .

سمّه إذا شئت « قانون تحوّل التراكمات الكمية إلى تغيرات كيفية » أو : قانون الإنقسام والصراع بين الحق والباطل ، أو : سنة الله في المجتمع الإنساني وهي التسمية القرآنية .

كم أتوق إلى معرفة تفاصيل هذا القانون في العالم ككل ، وفي مجتمعي وأسرتي ، وفي نفسي ، فما الواحد منا بما يحويه من خير وشر إلا مشروع انقسام طويل الأمد أو قصير ، يتم عند الفوج العشرين من أحفاده أو يتم في أولاده المباشرين .

كم أتوق إلى مواكبة أبناء اسماعيل عليه السلام ونمو الخير والشر فيهم ، وتغذية الخير للشر بما يفرزه، وتغذية الشر للخير بمن يفلت منه ... حتى بلغ الخير ذروته في شخص رسول الله صلى الله عليه وآله ومن آمن معه ، وبلغ الشر ذروته في فراعنة مكة ومن كفر معهم ، فكان لا بد من الإنقسام والصراع ، وكان عمق الإنقسام كفيلاً بإعطائه بُعداً عالمياً وتاريخياً .

الخبير بمجتمع مكة قبل هذا الإنقسام يراه نتاجـــاً طبيعياً لسنّة الله في المجتمعات . يراه انفجاراً حتمياً للتراكات الكمية التي لا بد أن تتحول إلى تغـيّر كيفي . ويرى أن العناصر التي مثلت أمة الشر هي ذات العناصر الشريرة قبل الإنقسام يراها نفس المرابين والظلمة والفجار ، وأن العناصر التي مثلت أمة الخير هي ذاتهـــا قبل الإنقسام . فالناس معادن كمعادن الذهب والفضة ، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام . كما في الحديث الشريف .

وحتى أولئك الذين ما كان ينتظر منهم الخير ، كانت فيهم بذوره تنمو حتى غلبت . وأولئك الذين لم يكن ينتظر منهم الشر ، كانت فيهـــم بذوره تنمو حتى غلبت .

* *

كان هذا الإنقسام قدراً واقعاً لا محالة ليميز الله الخبيث من الطيب ، ولم تسلم واحدة من قبائل قريش أو من مجموعاتها العشر من الإنقسام :

بنو عبد مناف

وبنو زهرة

وبنو عبد الدار

وبنو مخزوم

وبنو عبد العزى

وبنو تيم

وبنو جمـح

وبنو سهم

وبنو عدي

وهم قريش البطاح ، الذين يسكنون بطاح مكة .

وبنـــو عامر بن لؤي – الفهريون ، وهم قريش الظواهر ، الذين يسكنون ظواهر البطاح .. كلهم شملهم قانون الإنقسام ، وحتى أحلافهم من الأحابيش ، وإن كان الإنقسام بلغ قمته في بني عبـــد مناف (مجموعة الهاشميين والأمويين) فكان منهم رسول الله صلى الله عليه وآله ونخبـــة من كبار المؤمنين وكان منهم أبو لهب وأبو سفيان وآخرون عديدون .

* *

يا له من انقسام ومن صراع ، مـــا أعظم بركته على العالمين ، ومـــا أشد ما زمجرت فيه شجرة الشر العاتية على نبتة الخير المباركة .

هكذا كانت المعادلة يا صاحبي : أمة الشر كانت كثيرة ونافذة وجبارة ، وأمة الخير قليلة ومضطهدة .

لكأني بمكة في الأسبوع الأول الذي عـــاد فيه محمد صلى الله عليه وآله من جبل النور رسولاً من الله وبـــدأ دعوته وتلا أول آيات ربه – لكأني بمكة تغلي غلي المرجل ، وتـُدوّي دوي العاصفة المتحفزة .

أما من اكتمل فيهم نموّ الشر فقد بادروا واتخذوا الموقف رفضاً باتاً لا مجال فيه لكلمة ، ومضياً في الصراع إلى آخر الشوط .

وأما من اكتمل فيهم نموّ الخير فقد بادروا واتخذوا الموقف تصديقاً لا ريب فيه ، ومضياً كما يأمر الله ورسوله مهما كان عددهم وعدتهم .

وأما الباقون ممن استمعوا إلى الدعوة أو سمعوا بها ، فقد أخذت تتفاعل في أنفسهم البذور .. وعبْر بضع عشر عامـــاً من الصراع والنمو نضجت عملية الإنقسام ، وتكوّنت أمة الإسلام ، وتكونت أمة الكفر .

من الأسبوع الأول للدعوة تغير جوّ مكة وتغيرت أجواء النوادي :

دخل الوليد بن المغيرة ناديه مغضباً يحيط بـــه غلمانه فجلس على طنفسته الخاصة في صدر النادي يهمهم في نفسه لا يكلم أحداً ولا يلتفت إلى أحـــد . قدموا له طعامه الخـــاص (قصعةُ ثريد من لُباب البر ولحوم الغزلان الناشئة) وما أن التهمه حتى صاح بالغلام : يا غـــلام أُدع لي ابن العيطلة وابني خلف ، ويا غلام أُدع لي عمراً بن هشام وأبا سفيان بن حرب .

وذهب الغلامان، وبقي الوليد ينظر أمامه كأن عينيه قد سمّرتا في الأرض، وبعد برهة رأى قدمي العبد الحبشي الذي يقف قريباً منه فصاح به :

– يا ابن الزانية ما وقوفك هنا ؟

قال الغلام : يا سيدي إني أحمل الإناء لتغسل يديك .

فقال : هات الإناء ، صب على يديّ ..... محمداً فقد أنساني نفسي .

ودخل الجميـع على الوليد :

– أنعم مساءً يا أبا عبد شمس .

– أنعموا مساءً .

ولم يقف لأحد منهم فقـــد كان أثرى أثرياء قريش . قريش بكلها تكسو الكعبة عاماً ، ويكسوها وحده عاماً .

وجلس الجميع صامتين ، وأدار عليهم الغلمان كؤوس النبيذ ، فصاح الوليد بالغلمان : إنصرفوا ولا يدخلنّ علينا إلا أشراف قريش .

والتفت الوليد إلى أبي سفيان قائلاً :

أما كفى بني هاشم أن فيهم سيادة قريش على فقرهم وضعفهم ، حتى أتانا ابنهم بما أتانا ، يكفر بآلهتنا ويسفّه أحلامنا !!

لقد أرسل إليّ محمد أنه يريد أن يراني لأمر فيه فلاحي وسؤددي فدعوته وسألته ما عنده ، فدعاني إلى أمره الذي سمعتم ، فلم أعجل بردّه وتفكرت في أمره من وجوهه (!) فرأيت أن ابن عبدالله يريدنا أن نطيعه ونطيع من يزعم أنه الله الواحد الأحد وأن ننبذ آلهتنا ونكون مع الناس ومع سوقتنا وعبيدنا سواء ! .. ويزعم أنا بهذا الأمر نسود العرب ، وكل الناس !!

ويْح ابن عبد الله إن هو لم يرجع عن ضلالته ، ولقد زجرته ونهيته أن يعود لهذا القول ، وإلا أغريت به غلماني .

ما تقولون أيها الرهط ، أما أنا فأراه أمراً له ما بعده ، ويا ويحنا إذا صدق محمداً بنو أبيه بنو عبد المطلب .

قال أبو سفيان : يا أبا عبد شمس إن ما ساءك قد ساءني ، واللات والعزّى لا ندعنّ محمداً يكفر بآلهتنا وينزع عنا شرفنا . وبشراك يا أباعبدشمس فإن عمه أبا لهب أقسم باللات والعزّى ليؤلبنّ عليه بني أبيه . وإني أرى أن نغريَ به عمه فيكفينا سوء مقالته .

وقال عمرو بن هشام (أبو جهل): كانت لي مع محمد صحبة وليتها ما كانت، لقد كنت أرجو خيره لقريش لما كنت أظن من رجاحة عقله وكريم هديه ، وإني يا عم أرى ما ترى ، وأقول بما تقول .

والتفت الوليد إلى ابن العيطلة الحارث بن قيس بن عدي قائلاً : وأنتم يا بني سهم ؟

قال الحارث : إني لا أظن صاحب حجىً وسداد رأي يجيب دعوة محمد ، وأنا وقومي عونكم عليه ننصر آلهتنا ونحفظ شرفنا .

ثم التفت إلى أُمية وأُبيّ ابني خلف : وأنتم يا بني جُمح ؟

فقال أمية : يا أبا عبد شمس لقد تركنا وجوه قومنا في نادينا وما نحن بأشد منهم على محمد ، ولا بأكره لدعوته منهم ، ولك بعد علينا الفضل ، ولك فينا الرأي المطاع .

وقال أُبيّ : واللات والعزى إن لم يرجع محمد عن غيّه لأقتلنه شر قتلة ، ولأناجزن بني عبد المطلب بمن يطيعني من جُمح . أيريد ابن عبد الله أن ينبذ أصنامنا ولا يبقى لنا مأثرة في العرب !

ولم تهدأ النوادي بعد ذلك . وكان نادي الوليد بن المغيرة من أكثرها عمراناً في الكيد لدعوة الإسلام ، خاصة بعد أن ردَّ الله عليه تهديده فأنزل فيه آياته :

« كلا . إن الإنسان ليطغى ، أن رآه استغنى . إن إلى ربك الرجعى . أرأيت الذي ينهى ، عبداً إذا صلى .

أرأيت إن كان على الهدى أو أمر بالتقوى .

أرأيت إن كذب وتولى ، ألم يعلم بأن الله يرى .

كلا ، لئن لم ينته لنسفعنْ بالناصية ، ناصية كاذبة خاطئة .

فليدع ناديه ، سندع الزبانية ..

كلا . لا تطعه ، واسجد واقترب »

وأنزل فيه :

« ذرني ومَن خلقت وحيداً ، وجعلت له مالاً ممدوداً ، وبنين شـهوداً ، ومهدت له تمهيدا ، ثم يطمع أن أزيد ..

كلا ، إنه كان لآياتنا عنيدا ، سأرهقه صعودا .. إنه فكّر وقدّر ، فقُتل كيف قدر ، ثم قتل كيف قـدر ، ثم نظر .. ثم عبس وبسر ، ثم أدبر واستكبر ، فقال إن هذا إلا سحر يؤثر ، ان هذا إلا قول البشر ! سأصليه سقر .. »

ولم يهدأ الوليد بكل ما أُوتي من ثروة ونفوذ وحيلة حتى وهو طريحٌ ينزف شريانه دماءه السوداء وهو في الخامسة والتسعين من عمره ! فقـد مرّ على رجل يريش سهامه فعثر بسهم منها فلم يستطيعوا إيقاف الدم ، ولم ينس أبو عبد شمس أن يوصي أولاده بمتابعة الكيد للإسلام ، وأن يضيفوا إلى ثروتهم الطائلة ديته من قبيلة خزاعة لأن صاحب السهم الذي عثر به خزاعي !

وبالفعل أخذ أبناؤه الدية من خزاعة !

* *

أصحاب النوادي وهم من التجار المرابين كانوا أشد الناس عداءً لله ورسوله ، ثم الزعماء(وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أُرسلتم به كافرون) ثم بقية الفجار والفراعنة من أصناف الناس .

كانوا فراعنة حقاً ، فقد قال لهم الله عز وجل : « إنا أرسلنا إليكم رسولاً شاهداً عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولاً ، فعصى فرعون الرسول فأخذناه أخذاً وبيلاً » (١٥ - ١٦) المزمّل .

ويذكر التاريخ من هؤلاء الذين جاهدوا وأنفقوا وقاتلوا في سبيل الشيطان :

الوليد بن المغيرة المخزومي

أبو جهل عمرو بن هشام المخزومي

عبد الله بن أمية المخزومي

أبو لهب بن عبد المطلب الهاشمي

أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب الهاشمي

مطعم بن عدي بن عبد مناف

أبو سفيان بن حرب الأموي

عُقبة بن أبي مُعيط الأموي

الحكم بن أبي العاص الأموي

عتبة بن ربيعة العبشمي

الأسود بن عبد يغوث بن وهب الزهري

الحارث بن قيس السهمي

نبيه ومنبه ابنا الحجاج السهميان

العاص بن وائل السهمي

النضر بن الحارث من بني عبد الدار

الأسود بن المطلب من بني عبد العزى

أُمية وأُبيّ ابنا خلف الجمحيان

وبعض هؤلاء أسلم عند فتح مكة .

* *

الحديث عن مجتمعك يا مكة شيقٌ ومفيد .

كيف نشأ فيك الإنقسام ، وكيف نما ، وتم .

ومَن الذين مثلوا أُمة الشر .

ومن الذين مثلوا أُمة الخير .

وكيف تتابعت مراحل الصراع ..

وكيف ثبت المؤمنون واحتملوا المحنة ، حتى أكمل الله تربيتهم ، ويسّر لهم قاعدة الإنطلاق، وفتح لهم الضوء الأخضر : « أذن للذين يقاتَلون بأنهم ظُلموا ، وإن الله على نصرهم لقدير ، الذين أُخرجوا من ديارهم بغير حقٍّ إلا أن يقولوا ربنا الله .. »

ثم كيف احتدم الصراع الدموي وتوالى انتصار المضطهدين حتى دخلك جيش الإسلام الظافر فاستسلمت بدون قتال .

وكيف جمع رسول الله صلى الله عليه وآله مَن بقي من فراعنتك وأتباعهم وقال لهم : ماذا ترون أني فاعل بكم ؟

قالوا : أخٌ كريم وابن أخ كريم (!!)

قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء .

الحديث عن مجتمعك يا مكة شيقٌ ومفيد لأنه بوضوحه يُلقي لنـا الأضواء على كل مكة في تاريخ الناس . فالإنقسام الذي حصل فيك لم يكن مرحلة تاريخية حاسمة فحسب ، بل قانوناً اجتماعياً بلغ فيك النضج فأعطى ثماره ، وهـو بعد ممتدٌ في المجتمعات ، وها هو قد بلغ أشده في مجتمعنا المعاصر .

منك يا مكة أفهم مكتنا الكبيرة اليوم وهي كل العالم . كل العالم .

ومن فراعنتك أفهم المئـة فرعون الذين يتحكمون في مصير أهل الأرض وفي مقدراتهم اليـوم . وأفهم أعوانهم طوابير الفراعنة الصغار المنتشرين في أنحاء العالم .

ومن أُمة الخير فيك أفهم أمـه الخير في عصرنا ويزداد بهم إيماني ولهم حبي ، وإن كنت لا أعرفهم جميعاً ، فالمؤمنون المضطهدون اليوم على قلتهم أكثر عدداً من المؤمنين الذين عرفتِهم يا مكة ، وأوسع انتشاراً .

وها هو قانون الإنقسام في مكتنا الكبرى آخذٌ بالنمو . والصراع آخـذ بالإحتدام ، حتى يتم الله وعده الذي بدأه فيك ، ويظهر دينه على الدين كله .

* *

يا أمة الخـير في مكتنا الأولى ، ويا أنصار الله ورسوله : في قلبي لـكم حديثان :

حديث الإكبار والمحبة : لصدق الإيمان ، ولعمق الإيمان ، ولنداوة الإيمان ، ولنبل الإيمان ، ولاستعلاء الإيمان ، وللتضحيات .. أشهد أنكم آمنتم بالله ورسوله واحتملتم وصبرتم وجاهدتم ، فنعم عقبى الدار .

بنفسي ما لاقيتم في سبيل الله ، فلقد عمكم البلاء بشكل وبآخر .

إن في قلبي مشاعر فريدة تجاه الأفذاد منكم ، أولئك الربانيين، الذين تعجب من تضحياتهم الملائكة .

وتجاه الشبان منكم: علي بن أبي طالب الذي سجل الأرقام القياسية في نصرة الإسلام ، وفاطمة الزهراء ابنة أبيها وأم أبيها ، ومصعب بن عمير ابن الأسرة المترفة ، والأرقم بن أبي الأرقم ، والحارث بن نوفل ، وأيمن بن أم أيمن ..

وتجاه الذين تحملوا التعذيب الجسدي أكثر من سواهم : أنينك على رمضاء مكة يا بلال ، يا فخر أفريقيا ، والطواغيت يريدونك أن ترجع عن إيمانك وتدخل في كفرهم وأنت تقول : لا إله إلا الله .. أَحَدٌ . أَحَد .

ويا عمار وياسر وسمية

ويا مصعب وخباب وصهيب ..

أحب يا أنصار الله أن أعرف عنكم أكثر ، أن أزور البقاع التي حفظها التاريخ عنكم ، وأشم أرواحكم منها . بنفسي الليالي الأليمة والساعات الرهيبة التي مرّت عليكم . وبنفسي نوركم يسعى بين أيديكم وبأيمانكم ويزداد توهجاً كلما اشتدت ظلمة الكفر من حولكم .

وحديثٌ آخر هو الشكوى إليكم أيها الأحبة : فمع كل ما لاقيتم فإن مكتنا اليوم أصعب من مكتكم ، وفراعنة عصرنا أعتى من فراعنة عصركم .

ماذا أبثكم أيها الأحبة : على سعة مكتنا اليوم فهي أضيق علينا من مكتكم ، فقد كانت مكتكم محكومة بنفوذ الفراعنة ، ذلك النفوذ البدائي ، ولم يكن فيها سلطة مركزية تمتد إلى كل بقعة وإلى كل بيت وإلى كل كلمة .

وفراعنة عصركم مهما كانت إمكاناتهم فهي قليلة ، أو متقاربة مع إمكاناتكم في النوع . أما فراعنة عصرنا فقدراتهم واسعة كبيرة في التحوير والتحريف والإتهام والتلاعب في ذهنية الجماهير وصرفهم عن الإسلام . هل سمعتم بالتخطيط الإعلامي الرهيب ، والأساليب الإعلامية المبتكرة (العلمية !)

وأنتم لم يكن عندكم جهاز كهنوت يعيش باسم الإسلام ، فدعوتكم إلى الإسلام كانت في أولها . أما نحن ففي أمتنا جهاز كهنوت يسبح بحمد الفراعنة وله سلطان على قلوب الناس ، وما أسرع ما يتهم دعوتنا إلى الإسلام بالتحريفية وبالمذهبية وبالعمالة ، ويصدقه كثير من الناس !

وفي عصركم أيها الأحباء كان مقبولاً أن يكون الدين هو المنظم للحياة الدنيا وللحياة الآخرة فلقد كان وعي الناس لوحدة الحياتين أكثر من وعيهم الآن !

إن كثيراً من الناس في عصرنا يهربون منا حينما نطرح عليهم أمر تنظيم الإسلام لشؤون الحياة ، كأنهم حمر مستنفرة ، فرّت من قسورة .

إن ردة الفعل في نفوس الغربيين من تسلط الكهنوت الكنسي امتدت إلى أمتنا وإلى العالم ، وأصبحت من أكبر العقبات في وجه تقبل الإسلام منهجاً لحياة الناس الإجتماعية والإقتصادية والسياسية .

وأنتم كنتم أمةً متميزين عن غيركم بوضوح . كنتم أمة الإسلام الصريح في مواجهة أمة الكفر الصريح . لكننا اليوم نواجه أمةً خليطاً من الإسلام والكفر ، ومن ورائها الكفر الملبس بأثواب جديدة . أنتم كنتم تجاهدون على التنزيل ، أما نحن فنجاهد معاً على التنزيل والتأويل . وجهاد التأويل شاقٌ أيها الأحبة .

ولهذا وغيره يا أحباء الله فإن محنتنا اليوم تختلف عن محنتكم . كم من بلال لنا يتلقى التعذيب فلا يسمع أنينه الناس ، ولا يسجل أنينه التاريخ .

وكم من ياسر وسمية يقضون شهداء على أيدي الفراعنة لأنهم قالوا ربنا الله وأمروا بالقسط ، فلم يحس باستشهادهم أحد .

وكم من مؤمن دعا الناس إلى الله فتخلى عنه أهله وأصدقاؤه ، وحاربه مجتمعه في لقمة عيشه ، وفي كرامته ... !!

ولأن مكتنا أكبر من مكتكم يا أنصار الإسلام فإن دورة النصر عندنا أطول . لقد تمت مراحل الدعوة في عصركم من البدء حتى النصر في عشرين عاماً أو أقل . أما نحن فإذا تمت في عصرنا في مئة عام فهو نصر غير متوقع .

صحيح أننا وإياكم على ميعاد من الله بالنصر ، ولكنكم كنتم تعملون لنصر قريب ، ونحن نعمل لنصر بعيد ، وربما كان بعيداً لقرنين .

أنتم شهدتم نهايات فراعنتكم وشفيتم صدوركم من تحطُّم كبريائهم ، أما نحن فلا نشهد إلا فرعنةً تتجدد وعتوّاً يتعاظم .

وصحيح أنا نملك رصيداً ضخماً من تجاربكم وتجارب الذين اتبعوكم بإحسان ، ولكننا نقود أنفسنا بأنفسنا وقد كنتم أنتم بقيادة رسول الله صلى الله عليه وآله .

حديث شكوى لا يأس فيه أيها الأحبة ، وإنما هو نفثة آلام فأنتم خير من يعرف آلام الطريق وثقل الظلام قبل أن يبزغ الفجر .

وحديث شكوى لا اعتراض فيه على أمر الله أيها الأحبة ، فقد تعلمنا منكم التسليم لأمر الله والمضيّ فيه .

نحن نعلم أن دورة مكة المعـــاصرة أرادها الله كبيرة بحجم الإنتصار الذي يريده للإسلام . وأن إعداد الأمة الواعية من أمة الإسلام التي طال عليها الأمـد أراده سبحانه صعبـــاً طويلاً بمستوى الدور الطليعي الذي يعدهم لتأديته في العالم ..

ولتهنأ قلوبكم بثباتنا ونموّنا يا إخوة العقيدة ، فالعنـــاصر الواعية في أمة الإسلام تزداد كماً وكيفاً بفضل الله ، وتغذّ في الطريق بعون الله .. ويا لسعادة ذلك اليوم الذي تـُكوّن في الأمة تياراً يحقق النصر تلو النصر حتى يـــتم وعد الله .

مكة كما نريد

أتمنى أن أكلف من حكومةٍ ثرية بالإعداد لمؤتمرٍ من أجل مكة ، وأن يقال لي : تصرّف بحريتك كمسلم يعرف ما لمكة من مكانةٍ عند الله ، ويهدف أن تكون هذه المكانة محفوظة في ضمير العالم وفي قلوب المسلمين .

أتصوّر نفسي لبضعة شهورٍ أتقصى آراء هذا وذاك ممن يهمهم أمر الإسلام ، وأفكر نهاري وليلي.. ثم أخرج بجدول أعمال للمؤتمر وبقائمةٍ لمن يجب أن يدعوا إليه من خيرة المفكرين المسلمين .

أما جدول الأعمال فأرى أنه يجب أن يشتمل على شؤون إعلامية ثقافية ، وسياسية ، وتنظيمية ، من أجل مكة . وأنه يتوجب لذلك أن يتوزع المؤتمرون إلى ثلاث لجان، وأن تكون لجنة رابعة فقهية مهمتها تقديم الصورة الفقهية لمكة، ثم ملاحظة مقررات اللجان الثلاث لتكون منسجمة مع الأحكام الشرعية بشكل عام والأحكام الشرعية المتعلقة بمكة بشكل خاص .

كما يجب أن يكون لكل لجنةٍ الحق في الإستعانة بالخبرات التي تحتاج إليها في عملها .

أما اللجنة الإعلامية – الثقافية فتبحث أفضل المواد وأفضل الوسائل التي تجعل مكة تعيش في ضمير العالم وفي ضمير المسلمين خاصة .

ويدخل في عملها وضع خطة لتطوير إذاعه مكة ، والاحتفالات السنوية التي يمكن أن تقام في مكة : في موسم الحج في منى ، وفي ذكرى المبعث عند جبل النور ، وفي ذكرى الهجرة عند جبل الهجرة .. وتُنقل بالبثّ المباشر إلى أنحاء العالم .

ويدخل في عملها التأليف عن مكة واللوحات والإستطلاعات ، وحتى الأفلام .

ويدخل في عملها بحث أن تكون مكة مقياساً عالمياً للتوقيت فإن موقعها الجغرافي على مقربة خط الإستواء وتقارب ليلها ونهارها يساعدان على ذلك حسب ظني .

ويدخل في عملها أن يكون في مكة معاهد ثقافية من نوع خاص ، من رياض الأطفال إلى الدراسات العليا ، يُنشّأ فيها نخبةٌ من أذكياء المسلمين تنشئةً إسلامية هادفة .

ويدخل في عملها تحويل البيوت والمواقع المباركة إلى معاهد ومراكز .

وأما اللجنة السياسية فيدخل في عملها أن تكون مكة مهجراً ومأوىً لمن أراد من المسلمين، وأن يُبنى فيها مركزٌ للمضطهدين السياسيين من دعاة الإسلام، بل من كافة المسلمين ، وتُيسر لهم الأعمال المناسبة .

وأما اللجنة التنظيمية فتبحث في تنظيم مكة تنظيماً يتفق مع كرامتها عند الله عز وجل . تبحث في إزالة كافة المباني عن السفوح والروابي المحيطة بالحرم الشريف مسافة ثلاثة كيلومترات من كل جانب . وفي تنظيم المدينة في ما وراء هذه المساحة . وفي تنظيم الشوارع وممرات المشاة في مساحة ما حول الحرم الشريف . وتبحث في مشروع مبانٍ للحجاج في مكة . وتنظيم الحركة في الحرم والمطاف والمسعى .

ويدخـل في عملها تنظيم مشاعر الحج وتطوير المرور فيها بالأنفاق والجسور بين الجبال ، للسيارات والمشاة . ومسألة الخيام والإفاضة من عرفـات . ومسألة الذبائح (الأضاحي) في منى .

ويدخل في عملها تيسير الحج على المسلمين ، وتقليل نسبة الذين يحجون أكثر من مرةٍ إذا لزم الأمر .

ويدخل في عملهـا استبعاد من لا يصلح للإقامة في مكة ممن يغش الناس ، أو يلحد في الحرم بفسقٍ أو نشر رذيلةٍ أو أفكارٍ تضاد الإسلام .

* *

كم يشغلني الإهتمام بمكة المباركة،وكم يلح علي هذا الأمر وأشعر بضرورته حينما أجد مفارقةً أو أسمع عنها من حجاج وزوّارِ مكة .

وكم أتلظى غيظاً حينما أجـد أن أعداء أمتنا يتخذون من هذه المفارقات مدخلاً للطعن في أمتنا ودينا وكعبتنا !

لقد اتخذ الله مكة عاصمة لأرضه ، وجعلنا نحـن المسلمين أمناء على حفظها قبلةً وعاصمةً وأمناً وهـدىً للعالمين .. ويا بشرى الوقت الذي نكـون فيه بمستوى أمانة الله عز وجل ونخطو خطواتٍ كبيرة في أداء حقها .

جـدّة والبحر الأحمر

ألا تشعر يا أخي بحنـــان الأمومة يهوّم عليك . ألا ينبض صدرك بعاطفة البنوّة تجاه أمنا حواء .. إننا في مدينة جدة ، جدتنا حواء . أمنا رحمها الله .

تقول روايةٌ في التاريخ إن في هــذا الساحل مثواها ، وإن المدينة سميت (جدة) من أجلها . ومهما تكن هذه الرواية ، ألا يكفي أن يكون قــبر أمنا حواء رمزاً لها ، إنه لا يوجد لأم البشر رمزٌ إلا في هذه المدينة فيما أعلم .

منـذ سمعت بهذه الرواية وبوجود قبر لأمنا في جدة أصبحت مشاعري كلما زرت هذه المدينة تتوزّع : بين أمنا حواء ، وبين البحر الأحمر ..

لقد زرتها منذ ثمان سنوات ، فقد كنت مع صديق لي نسير مع الشارع الممتد من مدينة الحجاج باتجـاه مغيب الشمس ، والنسيم الهادىء قد تخفف من الحرارة وجرى محملاً بنداوة البحر ، وكنا منسجمين مع حديثنا ومع الطبيعة لولا أن دافعاً لاشعورياً جعلنا نستجيب لدعوة سائقٍ كان ينادي : الزيارة يا حـــاج ، زيارة أمنا حوّا .

وحينما أشار السائق بالنزول وأرشدنا إلى مكان الزيارة لم نجد أمامنا إلا سوراً

قديمة وباباً مقفلة تبدو من وراء قضبانها مساحة غير مستوية من الأرض فيها قبور متفرقة ، وخلف الباب إلى داخل السور رأينا موظفاً فسألناه عن قبر أمنا حواء فأشار إلى قبرٍ طويل تحوطه أحجار قديمة غير منتظمة ، وطلبنا إليه الدخول لكي نقف عند القبر فاعتذر بأن وقت زيارة المقبرة انتهى ، فأمسكنا بقضبان الباب ننظر إلى القبر ، وإلى التاريخ ، وإلى أنفسنا ، تتوارد علينا الأفكار وكأننا في حلم .

رُحت أتأمل في قصة أبوينا عليهما السلام وعدت إلى قبر أمنا حواء ففاض من صدري حنانٌ لها حتى كأنها أمي القريبة ، وتمتمت شفتاي بالفاتحة والدعوات ، وما راعني إلا امرأة زنجية أقبلت تحمحم وهي تطلب مكاناً إلى الباب تطل منه على المقبرة ، وكأن صدى من القبر قال لنا :

يا أولادي افسحوا المجال لأختكم !

وابتعدت عن الباب لتتقدم أختي فتسلم على أمها !

وازدادت المشاهد غرابةً في نفسي وأنا أستمع إلى زفرات أختي وحنانها وهي تتكلم بصوتٍ متهدج وبلغة أفريقية ، ثم أعلنت عواطفها المضطرمة فأخرجت قروشاً وعطراً نثرتها داخل الباب باتجاه قبر أمنا حواء ثم أمسكت بقضبان الباب وأجهشت بالبكاء .

جمدت قدماي في ذلك المكان ، وأنا أرى الزوار يتوافدون من كل لون ، فرادى وثبات ، وأخذت أفكر :

هذه أمي . وهؤلاء إخوتي وأخواتي ..

لماذا ذهبت من أيدينا أخوّتنا نحن بني آدم وحواء ؟

لا زلت أذكر يا صاحبي جـــلال المشهد وعمق الإعتبار ، فلقد كانت ساعة عشناها بإنسانيتنا الصافية واغترفنا فيهـــا الحنان الإنساني من منبعه الأول . ومـــا أحوجنا ونحن في عتمة الحياة في عصر النـــور (!) إلى ذلك الصفاء والحنـــان .

★ ★

هذه ســور المقبرة يا أخي ، وهذا هو البـــاب المقفل ، وذاك هو القبر المستطيل عند التلة الوعرة الذي أرشدنا اليه الموظف على أنه قبر أمنا حواء .

الباب مقفل أيضاً. كأنه قدر لنا أن لا نزور أمنا حواء إلا كما يزار السجناء! هل هي في سجن ، أم نحن .

لقد تغير الشارع والمباني ، ولم يتغير شيء من المقبرة . هنـــا وقفت أختنا الزنجية ، وبهذه القضبان أمسكت .

لكن زيارتنا هذه المرة اختلفت عن زيارتنا الماضية .

لم يزاحمنا أحد من إخوتنا في الوقوف إلى الباب ، فلسنا في موســم الحج ، والوقت ضحىً وليس عصراً أو صبحاً .

وحديثنا هذه المرة غلبت فيه العقلانية على العاطفة :

سلّمنا على أمنا حواء ودعونا لها وقرأنا لروحها الفـــاتحة ، ولأبينا آدم ولأرواح المؤمنين . وتساءلنا عن صحة الرواية التي تقول إن مرقد آدم في النجف من أرض العراق ومرقد حواء في جدة من أرض الحجاز . ولماذا تباعد قبراهما .

هل عاشا كل حياتهما في مكة ، أم تنقلا . وكم عاشا من العمر ، وأيهما توفي قبل صاحبه .

ثم انتقل بنا الحديث إلى الجنة التي جاءا منها ، أين هي . فالقرآن لا ينص على أنها من جنائن الأرض أو السماء ، وإن كان يبدو منه أنهـا جنة في السماء . والأحاديث بعضها يقول إنها في السماء ، وبعضها يؤكد أنها في الأرض .

وإذا كانت جنة أبوينـا في السماء : فهل هي الجنة الكبرى التي أُعدّت للمتقين . أو نموذج عنها ، أو جنة في منطقة من الملأ الأعلى .. وإذاً ، فقد أُخذت مادة آدم وحواء من أديم الأرض وصُنعا في المصنع الإلهي في تلك الجنة ، أو في منطقة أخرى ، ثم نقلا اليها ، ثم نقلا إلى الأرض .

وإذا كانت من جنائن الأرض : فهـل هي الهند كما تقول بعض الروايات ، وهـل الإنتقال من الهند إلى الحجاز إنتقال من الجنة إلى الأرض ، أم أن الجنة تعبير عن الغابة ، والهبوط منها تعبير عن الإنتقـال من الغابة إلى مرحلة الحياة الإجتماعية .

وما هو موقف الإسلام من نظرية دارون السائدة في التطور . هل يوجد في القرآن والسنة الصحيحة نصٌ على نظرية الخلـق المستقل ، أم هي ظواهر النصوص ودلالاتها الظنـية لا تمنع من الأخذ بنظرية التطوُّر إذا توفرت لها الأدلة الكافية .

والنصوص التي تقول إن قبل آدمنا ألف ألف آدم في العالمين ، والتي تقول إن الله خلق من أديم الأرض قبل آدم سبـع سلاسل وأن آدماً وبنيه هم السلسلة الثامنة والأخيرة ..

هل لنا صلة بهذه السلاسل السبـع بأن نكون قد تطورنا عنها ، أم أنهـا اكتملت وانقرضت ثم أنشأنا الله خلقاً جديداً مستقلاً .

وما مدى التشابه في الخلق بيننا وبينهم .

وهل أفاد أجدادنا شيئاً من بقايا مدنيات هذه السلاسل .

وهل آثار العمران الباقية وآثار المدنية والحضارة من بقايا أجدادنا أو من بقـــايام .

القرآن يعرض تاريخ بني آدم في الأرض منـــذ الأبوين وعبْر الأمم المتكونة منهما حتى الآخرين، فلا يبدو أنه تاريخ مغرق في القدم ، بل يبدو أنه لا يتجاوز المئة ألف سنة ، فلماذا نميل إلى تطويل تاريخ الإنسان على الأرض .

وعلى أي أساس يفترض علماء الإنسان اتصال سلسلة الهياكل المكتشفة التي تعود إلى ملايين السنين ويجزمون أنها سلسلة واحدة ، فلماذا لا يفترضونها سلاسل متعـــددة ؟

عرضت هـــذا التساؤل على أحدهم فأبدى فيه اهتماماً ، وذكرت له نصوص الإسلام في السلاسل السبع فأبدى دهشته ، وسجّل عنـــده اسم المصدر الذي كنت أتذكره .

واللغة التي كان يتكلم بها أبوانا ، هل كانت لغة كاملة بكلماتها وقواعدها ثم تشعبت مع الزمن . أم اقتصر الإلهام الإلهي على إعطائها القدرة على تكوين اللغة فكانت لغةً بدائية تمت مع الزمن وتطورت وتشعبت .

والدين الذي أمرهما الله أن يقيما حياتهما عليه والذي هـــو عقيدة التوحيد الفطرية والسلوك العـــام المستقيم .. ما حدوده ، ومـــا مقدار المحرمـــات والواجبات فيه .

والإمتداد السكاني كيف سار .. هل يصح افتراض أنه بدأ من الحجاز نحـو اليمن ثم نحو وادي الرافدين ومصر وحوض البحر الأبيض ، ثم إلى بقية العالم ..

وهل النفط المكتشَف في الحجاز والعراق له صلةٌ بتقادم الحيوان والإنسان والنبات في هذه المساحة ، فمن المعروف أن النفط يتكون من مواد عضوية ..؟

* *

واستطردنا في التأملات والإحتمالات ونحن نقف عند الباب ، ثم عدنا ننظر إلى القبر ونتبادل الحديث مع أمنا حواء ، ثم ننصت متفكرين لو كشف لنا الغطاء ماذا عساها تقول لنا ؟

سبحان الله ، ما أكثر ذريتك يا أماه . المعاصرون من أبنائك أربعة مليارات ، فكم عدد الماضين .. والآتين .

وهل يتسع قلبك لنا جميعاً ، هل تشعرين بحنان الأمومة للصينيين والهنود والأوروبيين والأمريكيين والروس والعرب والأفارقة ، وبقية الأصناف . وهل للأمومة عندك معنى آخر أعمق وأشمل مما لدى الأمهات من بناتك .

وما هو شعورك تجاه الوافدين اليك الذين أكملوا مدتهم على الأرض .

أم أنت يا أماه محجوبةٌ عن أبنائك الذين في الأرض ، وعن أبنائك المجرمين الذين يرحلون إلى النار .

نأسف يا أماه لأنا لا نعرف عنك وعن أبينا إلا القليل القليل ، وما عداه فظنون لا تُطمئن قلباً ولا تشفي غُلة .

قالت لنا أمنا حواء :

إن فيما تعرفان يا ولديَّ كفاية . إقرآ ما حدثكما الله عن حياتنا ، فلقد قدم لكم عز وجل كلَّ ما تحتاجونه في حياتكم من مواقف ضعفنا وقوتنا .

ليكن همكما يا ابنيَّ المعرفة العملية . أما فضول المعرفة فــلا يُشبعه إلا رحيلكم الينا . ها هنا يا أولادي ينكشف لـكم الغطاء وتستبين لـكم الأمور ، فاعملوا باجتهاد لتفوزوا بحياةٍ واعيةٍ سعيدة .

* *

المعرفة العملية ، والمعرفة النظرية ، وفضول المعرفة ، وموقف المسلم منها .. خير ما استفدناه من زيارتنا لأمنا حواء .

رحمك الله يا أمــاه ، فقد كنت مع أبينا عاملين جادّين ، على المنطق الذي فُطرتما عليه ، تهتمان في ما تحتاجان ، وتتركان ما لا دخل له في مهمتكما في الأرض وطموحكما في العودة إلى رحاب الله .

رحمكما الله ، فما أحوجنا إلى منهجكما العملي الجاد ، في المعرفة ، وفي السلوك.

* *

بقي علينا يا صاحبي زيارة البحر الأحمر ، ومـا أحلاها أن تكون في أصيل النهار ، على رملةٍ ناعمة إذا تيسر لنـا ، أو على رصيف مطل على البحر ، نجلس إلى الحبيب المزار ، نطلب إليه أن يحدثنا ، ثم نصغي إلى ما يقول :

أيها البحر : ضيفان من ملايين الضيوف على ساحلك ، جئنا إليك بحاجة ، لا هي لآليك ولا أصدافك ، ولا هواءك ونداوتك ، ولا نريد أن نمازح أمواجك بالكلام أو بالإستحمام ، ولا أن تحملنا على متنك في رحلةٍ طويلة أو قصيرة .

جئناك مستمعيْن ، نريد أن تحدثنا لا عن صحراء الجزيرة ، ولا عن إفريقيا التي تغسل أقدامها على ساحلك الآخر ، ولا عن الشاليهات والمقاهي المبثوثة على ضفافك ، ولا عن صدرك المتصل ببحر الهنـــد ، ولا عن الذين عمروا ضفتيك بالمدن والقرى والموانيء ، ولا عن الذين استخرجوا منـك الكنوز وجمعوا منك الثروات ، ولا عن الذين قضوا في لُجتك فقلت لأسماكك : رزقٌ ساقه الله إليكم ، فأكلوهم .

نريد أن تحدثنا عن سفينة شراعية عبرت من ها هنـــا إلى ضفتك الأخرى حاملة إخوة لنا. إن صدرك مليء بالكلام عن سفينة جعفر بن أبي طالب ورفاقه ، فحدثنا عن المهاجرين الأولين ، صانعي التاريخ ، وبُناة أمة الإسلام ..

وأنصتنا إلى البحر الأحمر يتحدث بأمواجه وبقلبه قال :

- قال لهم وقد اشتدت محنة المشركين عليهم : أما أنا فلا أُهاجر حتى يأمرني ربي ، وأما أنتم فمن كان منكم في أذىً من المشركين فليهاجر إلى يثرب أو الحبشة .

ومن كان في ضنك من معاشه فليهاجر لعل الله يرزقه من فضله ، فإن أموال خديجة (رحمها الله) أشرفت على النفاد .

ومن كانت له تجارة أو رغبة في الهجرة فذاك إليه إن شاء بقي وإن شاء هاجر .. ويا علي وجعفر استطلعا رأي إخوانكم من سيهاجر منهم ومن سيبقى وأخبراني ..

ولما عرضا عليه صلى الله عليه وآله أسماء من يرغبون بالهجرة إلى الحبشة ممن بقيت له بها علائق من الهجرة الأولى أو اعتادها وألفها مهجراً أو متجراً ، رأى أن مجموعة الحبشة تحتاج إلى قيادي واعٍ يرعى شؤونها، ويردّ كيد المشركين إذا سعوا بالكيد لها ، ويوطّد علاقة الإسلام بملك الحبشة الطيب ، ولعل الله يفتح على يديه ويدي المؤمنين قلوباً جديدة وحقلاً جديداً لدعوة الإسلام .

تفكر الرسول صلى الله عليه وآله يومين ووصل في نفسه إلى قرار ثم قال لعلي :

- يا علي أُدع لي جعفراً .

ودخل جعفر فسلم على رسول الله صلى الله عليه وآله وجلس إلى جانبه حيث أمره ، وابتدأ رسول الله بالكلام فقال :

- يا ابن عم ، إني أردت أن أنتدبك لأمر وجدتك خير من يصلح له ، فما قولك ؟

قال جعفر :

- ُمرني يا رسول الله فدتك نفسي ، إنه لا قول لي مع قولك . والله لو أمرتني أن أضع ُضبَّة سيفي في صدري وأنحني عليه ، أو أمرتني أن ألقي بنفسي من شاهق لفعلت .

فدمعت عينا رسول الله صلى الله عليه وآله وقال :

– جزاك الله بإيمانك خيراً يا ابن عم ، إني آمرك أن تكون في المهاجرين إلى الحبشة ، فإني نظرت في أمر الإسلام فوجدت أنه لا بد له من جماعة في الحبشة ، يستوطنون فيها ، ويمهدون لأمر الله قلوب الناس ، حتى إذا احتجت إلى الهجرة إليكم بمن آمن معي ، وجدنا ركناً نركن اليه .

يا ابن عم : إنك تعلم ما حدث في أمر الهجرة الأولى ، لقد أمرتهم أن يهاجروا ولم آمرهم أن يعودوا ، فكانت عودتهم أشد علينا من حالهم قبل الهجرة ، ولو قد بقوا هناك لكان خيراً لهم ولنا . وإني أخشى إذا شاء الله وهاجرنا إلى المدينة واستقرّ بنا المقام أن يتوق المؤمنون في الحبشة الينا فيعودون ، ثم إذا أجلبت علينا قريش ويهود وضعف المؤمنون وجرى علينا مكروه لا يبقى لنا موطن نهاجر اليه ونقوم فيه بأمر الله لا في العرب ولا في الأفارقة .

فأما أنت ومن آمرهم معك فلا تعودوا حتى يأتيكم أمري وإن عاد إخوانكم . وأما أنت يا جعفر فلا تعد حتى يأتيك أمري وإن عاد إخوانك .

عزيزٌ عليّ يا ابن عم أن أفارقك . بارك الله لك في أمرك . وجمعك معي في مستقر رحمته .

قال جعفر : بل عزيزٌ عليّ يا رسول الله أن لا أكون معك أقوم بأمرك وأذبُّ عنك وأفديك بنفسي .. واستعبر جعفر باكياً، ثم تماسك واستطرد :

ستجدني إن شاء الله عنــد أمرك يا رسول الله . وادع الله لي أن ينصر بي دينه وأن يرزقني الشهادة في سبيله .

قال رسول الله :

اللهم سدد جعفراً ، وانصر به دينك ، وارزقه الشهادة في سبيلك .

يا ابن عم ، إني سآمرهم أن يطيعوك ويقتــدوا بهداك ، وأوصيك بتقوى الله والدعوة إليه والرفق بالمؤمنين والرحمة بهم ، والمداراة لأهل الحبشة فإنمـا دينكم الحكمة وأنتم بعد في بلدهم . إتقوا الله حق تقاته ، وكونوا دعاة لله بأعمالكم قبل أقوالكم .

يا ابن عم : تجهز على اسم الله ، واصحب معك زوجتك . بارك الله لـكم وبكم .

قال البحر :

لم تكن يا زائريَّ سفينة الهجرة واحدةً ، بل كانت سفناً حملتُها بأمانٍ إلى شاطئي الآخر .

في الهجرة الأولى تجمّع عند هذا الشاطيء بضعة عشر رجلاً وامرأة جاؤوا فرادى وثُبــات ، منهم الراكب والماشي ، فارّين بدينهم من فراعنة مكة ، فوجدوا ساعة وصولهم سفينتين للتجار فحملوهم بنصف دينار عن كل نفس .

وفي الهجرة الثانية كانوا أكثر من ثمانين رجلاً وامرأة ، وصلوا من مكة على دفعات ، منهم الراكب والماشي ، وعبروا في عــدة سفن لا في سفينة واحدة .

وإذا شئتما يا صاحبي حدثتكم عن سفينة جعفر ورفاقه : كان جعفر آخر من ركب عن ساحلي . وكم عرفت من الرجال الذين أبحروا في لجتي ، ولكني لم أعرف مثل هذا الولي التقي .

جعل أصحابه جماعات ، وجعل على كل جماعة أميراً وبضعة نفر يقومون بشأنهم ويعملون على نجاتهم إذا حدث لهم حادث . واستبقى معه جماعة الشيبة والضعفة ، ولما أراد أن يُبحر أتاه أعرابي فأخبره بأن مؤمنيْن حبشيين قد فرّا من سيدهما العاص بن وائل السهمي وقد بعث من يطلبهما ويردّهما اليه ، وأنهما في طريقهما إلى جده ، يكمنان نهاراً ويسيران ليلاً .. فما كان من جعفر إلا أن كلم الربّان ووعده أجراً إن هو انتظر إلى اليوم التالي ، ثم أوصى المؤمنين والمؤمنات أن ينتظروه يوماً فإن هو لم يعد أبحروا وذكروا الله كثيراً . وأوصى أن يكون الأمير على الجميع في الحبشة عثمان بن مظعون الجمحي ، وأوصى زوجته أسماء ابنة عميس أن تقوم بخدمة المؤمنين حتى يعود فإن هو لم يعد أرسلت إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وائتمرت بأمره .

انطلق جعفر متقلداً سيفه يخطو باتجاه مكة خطواتٍ طوالاً عجالاً ، كان يغيب بين الجبال ويُطل في الشعاب لا يلوي على شيء حتى بلغ المكان الذي وصفه له الأعرابي، فأخذ يبحث عن المؤمنيْن الحبشيين جيئةً وذهاباً في الشعاب وسفوح الجبال حتى لاحا له وقد كمنا في ظل صخرة فصعد اليهما رافعاً صوته بالسلام معرفاً بنفسه فاستقبلاه بالدموع وقد بلغ منه الجهد والعطش فسقياه ، ثم انطلق بهما في وضح النهار حتى وافى الشاطيء ولما تبلغ الشمس المغيب !

قال البحر :

ما عرفت رجلاً مثله ينسى نفسه وهو يعطي الناس ، لقد كان يؤثر بطعامه ضعَفةَ المؤمنين وشيوخهم وبمكانه وغطائه . فإذا وقف يؤمهم في الصلاة أو تلا عليهم القرآن .. اهتزَّ قلبي وخشعتُ لصلاتهم وأخرست أمواجي وسبّحت الله معهم .

لعل رُبان السفينة لم يعرف رحلةً أيسر من تلك الرحلة ، فقد ألقى الله عليّ هيبتهم وأجرى لهم الهواء معتدلاً باتجاه الحبشة حتى نزلوا آمنين مطمئنين ولحقوا برفاقهم ، ودخلوا على ملك الحبشة موكباً واحداً يتقدمهم جعفر ، ولما سلم عليه وأخذ يكلمه لم يملك النجاشي دموعه فأخذت عبراته تترقرق على خديه ولحيته .

رحم الله جعفراً فقد بقي مع من بقي معه ، وهم نصف المهاجرين ، سبع سنوات في الحبشة حتى اطمأن رسول الله على امتداد الإسلام في آسيا فأرسل يأمر جعفر بالهجرة إليه ، فوصل جعفر إلى المدينة ثم وصل إلى خيبر في يوم فتح خيبر .

قال البحر :

تسألاني يا زائريّ عن جعفر ورفاقه ولا تسألاني عن رسول الله صلى الله عليه وآله حين مرّ على ساحلي في رابغ وهو في طريق هجرته إلى المدينة ..

يا لها من خطوات ثقال ارتعد لها قلبي وخشعت لها أعماقي وسكاني . ويا له من قلبٍ مليء قوي قلب رسول الله صلى الله عليه وآله وهو يخطو على ساحلي مهاجراً محفوفاً بكوكبة من الملائكة .

تمنيت لو يغسل قدميه على شاطئي . لو يمد يده إليّ لأملأ كفه الميمونة من جواهري ولأدفع بأسماكي تتزاحم أن يختار منها طعامه . لكنه لم يفعل ، فقد كان عجلاً يريد أن يغيب عن المشركين بين الجبال الشرقية ، وبقيت أحتفظ بوقع خطاه .. ولن أنساها .

خطواتٌ لا ترونها أنتم الناس ، وربما لا تحسون بها ، وماذا أصنع لكم إذا كنتم لا ترون إلا الموانيء والمقاهي والمسابح على ساحلي .

وقلبٌ لا تعيشونه ، وماذا أصنع لقلوبكم إذا لم تعش إلا الهوى .

قـال البحر :

يا صاحبيّ : إذا عدتما لزيارتي فاسألاني أولاً عن رسول الله صلى الله عليه وآله فلقد تشرفت بنظراته ، وتشرف ساحلي بخطواته ، وأحسّ قلبي بقلبه الكبير ، وحفظ منه الكثير .

ثم أسألاني عن أصحابه ، عن جعفر ورفاق جعفر ، فلقـد أحسست فيهم روحه ورَوْحه وهديه صلى الله عليه وآله .

كذلك قال البحر ، وكذلك قالت الصحراء والروابي عنك يا رسول الله .. وكذلك تقول الطبيعة كلها .

* *

وبعـــدُ : فهذه أحاديث مكة المكرمة وجدة والبحر الأحمر . وقد بقيت أحاديث المدينة المنورة .

وقد شاء الله أن تكون أحاديث أرض الإسلام المقدسة قسمين ، وأن تكون بينهما هجرة .

عسى أن يوفقني عز وجـــل لإنجـــاز القسم الثاني وضمّه إلى القسم الأول في طبعة لاحقة .

والحمـــد لله أولاً وآخـــراً .

موضيع الكتاب

دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت : البنـــاية المركزية الطـابق الثـاني ٢٠٥ ص٠ب ٧٠٦١ برقيا فيكسي هاتف ٢٤٤٧٣٩
القاهرة : ١ شارع سليمان الحلبي (دوبريه سابقا) ص٠ب ١٥٠٤ برقيا فيكسيبرنتس هاتف٤٤٠٦٢